

الفصل الرابع

السيميوطيقا : التراث السوسيرى

إنها لفقرات قليلة فى كتاب « دروس فى علم اللغة العام » تلك التى أفردت للسيميوطيقا؛ وهذا بلاشك واحد من أسباب إهمال علماء اللغة عموماً متابعة مبادرة سوسير لتطوير علم عام للعلامات، يعين موقع الألسنية ويوجهها. ولكن المنظور السيميوطيقى كان عند سوسير أساساً لآى دراسة جادة للغة. وقد كتب يقول: « أليس من الواضح أن اللغة هى قبل كل شىء نظام من العلامات، وأنه ينبغى لنا من ثم أن نلجأ إلى علم العلامات » إذا كنا بصدد تحديدها تحديداً دقيقاً؟ (إنجلر ٤٧).

إن اللغة نظام من العلامات التى تعبر عن الأفكار، وإنها لذلك تشبه نظام الكتابة، أو أبجدية الخرس، أو الطقوس الرمزية، أو أشكال اللياقة، أو الإشارات الحربية.. إلخ، ولكنها أهم هذه النظم.

من هنا نستطيع أن نتصور علماً يختص بدراسة حياة العلامات فى إطار المجتمع.... ونحن نسميه السيميولوجيا؛ وهى كلمة مشتقة من الكلمة الإغريقية semeion «العلامة». وسوف نتعلم منه م تتكون العلامات، وأى القوانين يحكمها. ولما كان هذا العلم لم يوجد بعد، فليس فى وسعنا أن نقرر على أى نحو سيكون، ولكنه من حقه أن يوجد، فمكانه معزز سلفاً، وليست الألسنية سوى جانب من هذا العلم العام، وسوف تكون القوانين التى تكتشفها السيميولوجيا قابلة للتطبيق فى مجال الألسنية، التى ستجد نفسها - من ثم - معلقة بميدان من الظواهر الإنسانية محدد تحديداً جيداً. (الدروس ١٦؛ دروس ٣٣).

ولما كان البشر يحدثون ضجيجاً، ويستخدمون الإيماءات، ويستعملون تشكيلات من الأشياء والأفعال من أجل إبلاغ معنى، فإن هذا يفسح المجال لعلم من شأنه أن يحلل

هذا النوع من النشاط، وأن يجلو نظم العرف الذى يستند إليه . ويذهب سوسير إلى أنه إذا فهمت الألسنية على أنها جانب من السيميولوجيا فستنتج عن ذلك نتائج مهمة :

فتلك الجوانب من اللغة، التى قد تبدو أول الأمر باللغة الأهمية (كاستخدام الآليات الصوتية vocal mechanisms) ، ستصبح اعتبارات ثانوية إذا هى اقتصر دورها على التمييز بين اللغة والنظم السيميولوجية الأخرى . ولن يقتصر هذا الإجراء على توضيح مشكلات الألسنية؛ فالطقوس، والعادات... إلخ، ستظهر - فيما نعتقد - فى ضوء جديد إذا ما تمت دراستها بوصفها علامات؛ وعندئذ سيقنع المرء بوجود إدراجها فى ميدان السيميولوجيا وشرحها وفقاً لقوانينها . (الدروس ١٧، دروس ٣٥) .

وهكذا تقوم السيميولوجيا على أساس افتراض أنه بقدر ما تنقل الأفعال البشرية وألوان الإنتاج البشرى المعنى، ويقدر ما تؤدى وظيفتها بوصفها علامات، يتحتم أن يكون هناك نظام أساسى للاعراف واللفروق بين الأشياء يجعل هذا المعنى ممكناً؛ فحيثما كانت هناك علامات كان هناك نظام؛ وهذا ما تشترك فيه ألوان النشاط الدالة المختلفة . وإذا كان على المرء أن يحدد طبيعتها الجوهرية فقد وجب عليه الا يتناولها فرادى بل بوصفها أمثلة للنظم السيميوطيقية . وبهذه الطريقة تعود الجوانب التى غالباً ما كانت مختفية أو مهملة فتصير واضحة، بخاصة عندما ينظر إلى الممارسات الدالة غير اللغوية على أنها « لغات » .

ولكن لماذا ينبغى تصور أن الألسنية، بما هى دراسة نظام دال بعينه وإن كان غاية فى الأهمية، تقدم المثال الذى يحتذى فى دراسة نظم أخرى؟ لماذا ينبغى أن تكون الألسنية، وفقاً للتسمية التى أطلقها عليها سوسير، هى « الراعى العام » Le patron général للسيميولوجيا؟ والإجابة ترد بنا إلى نقطة بدء مألوفة، ألا وهى الطبيعة الاعتبارية للعلامة .

لقد ذهب سوسير إلى أن الألسنية يمكن أن تكون نموذجاً للسيمولوجيا؛ وذلك لأن الطبيعة الاعتباطية والعرفية للعلامة في حالة اللغة تتضح بصورة خاصة، وربما بدت العلامات غير اللغوية في كثير من الأحيان طبيعية لدى أولئك الذين يستخدمونها، وربما تطلب الأمر منا بعض الجهد لكي نرى أن التهذيب في فعل ما أو سوء التهذيب ليس بالضرورة خاصية ذاتية لهذا الفعل، ولكنه معنى عرفي. ولكننا إذا أخذنا بأن الألسنية نموذج فإنها سترغم المحللين على التنبيه إلى الأساس العرفي للعلامات غير اللغوية التي يدرسونها.

وليس معنى هذا أن يقال إن العلامات قاطبة اعتباطية بصورة كلية؛ فهناك بعض القيود الذاتية التي تقيد المعانى التي يمكن أن تحملها الأفعال، والقيود التي تقيد - في المقابل - فئة الأفعال الملائمة للتعبير عن معنى بعينه. وإنه لمن الصعب تصور حضارة ما يمكن أن تكون فيها اللكمة على الفم تحية ودية، ولكن هناك نطاق بكامله من الأفعال التي يمكن - في إطار بعض الحدود - أن تصلح صلاحية تامة لأن تكون تحيات ودية، وفي إطار هذا المجال من الإمكانيات المتاحة يستطيع المرء أن يتحدث عن العلامات بوصفها عرفية واعتباطية. وقد كتب سوسير يقول:

إن كل أداة من أدوات التعبير المستخدمة في المجتمع تقوم بصفة مبدئية على أساس معيار جمعي *collective norm*، أو - بعبارة أخرى - على أساس العرف. إن علامات التهذيب - مثلاً - غالباً ما تكون لها قوة تعبيرية طبيعية (يمكن أن نتذكر هنا الطريقة التي يسجد بها الرجل الصيني تسع مرات أمام الإمبراطور ليؤدى التحية)، ولكنها مع ذلك محددة بقاعدة؛ وهذه القاعدة هي التي ترشد المرء إلى استخدام تلك العلامات، وليست قيمتها الذاتية. ومن ثم فإنه في وسعنا أن نقول إن العلامات التي تتسم بالاعتباطية التامة هي تلك التي تكون أقرب ما تكون من المثال السيمولوجي. وهذا هو السبب في أن اللغة، وهي أكثر نظم التعبير

تعقيداً وانتشاراً، هي كذلك أكثرها نموذجية. ولهذا السبب يمكن أن تصلح اللغة لأن تكون نموذجاً للسيمولوجيا في مجملها، وإن لم تكن اللغة سوى نظام من نظمها. (الدروس ٦٨؛ دروس ١٠٠ - ١٠١).

إن المزية في اتخاذ الألسنية نموذجاً للتحليل السيميولوجي تتمثل في الفرض الذي رسخته، وهو أن العلامات لا بد أن تكون اعتباطية وعرفية.

لماذا يكتسب هذا أهمية؟ إن العلامات تبدو في المعتاد - وقد شحنت بالمعنى الملازم لها - طبيعية لدى أولئك الذين يستخدمونها، والناس ميالون إلى تأكيد أن سلوكهم الخاص إنما تحكمه اعتبارات عملية أكثر منها رمزية، كما أنهم يؤكدون أنهم يختارون الملابس «المريحة» أو «الجيدة في نوعها»، ويشترون الطعام الذي يحبون مذاقه، ويستخدمون الإيماءات التي يرونها معبرة بصورة طبيعية. وبقدر ما تكون الحضارة قوية، يكون نجاحها في التعامل بعلاماتها بوصفها علامات طبيعية. ومن ثم يتطلب التحليل السيميوطيقي نموذجاً يؤكد الأساس الحضاري العرفي للعلامات من أجل مقاومة الجهود الإيديولوجية التي تجعل منها علامات طبيعية، وإذا ما بدأ المرء بافتراض أن العلامات اعتباطية، فإنه سيتجه إلى التماس نظم العرف الأساسية. وكما أن الطبيعة الاعتباطية للعلامة في الألسنية تقود المرء إلى بيان النظام الخاص بوجود الاختلاف الوظيفية التي تنشئ العلامات، فكذلك يركز المرء في حالات أخرى على وجوه الاختلاف المهمة؛ وهي وجوه الاختلاف والتعارضات التي تحمل معنى. ما الذي يميز بين تحية مهذبة وأخرى غير مهذبة، وبين ثوب مطابق لأحدث الطرز وآخر غير مطابق؟ هنا يشرع المرء لا في دراسة العلامات المفردة، بل في دراسة منظومة من الفروق.

ميدان السيميوطيقا:

إن اقتراحات سوسير فيما يتصل بالسيمولوجيا لم يؤخذ بها على الفور؛ ولم يبدأ الآخرون في التحقق من أهمية مقترحاته هذه إلا عند منتصف هذا القرن، بعد مضي عدة سنين على نشر المحاضرات. ويبدو الأمر كما لو أن الحقول المعرفية المفردة كان عليها

أن تتطور بأساليبها الخاصة، وتعيد استكشاف ما توصل إليه سوسير من استبصارات لنفسها، قبل أن تتمكن من أن تصبح سيميوطيقية بمعنى الكلمة. والواقع أن ما يسمى الآن «بنوية» قد ظهر عندما رأى علماء الأنثروبولوجيا، ونقاد الأدب وآخرون غيرهم أن مثل الألسنية يمكن أن يعينهم على تبرير ما حاولوا هم أن يصنعوا في حقولهم المعرفية الخاصة، كذلك فإنهم عندما شرعوا في اتخاذ الألسنية نموذجاً، أدركوا أنهم كانوا في الحقيقة يطورون السيميولوجيا التي كان سوسير قد طرحها منذ زمن بعيد.

وقد بقى الأمر حتى عام ١٩٦١ عندما عرّف عالم الأنثروبولوجيا كلود ليفي شتراوس في محاضراته الافتتاحية في الكوليج دي فرانس علم الأنثروبولوجيا بأنه فرع من السيميولوجيا وأثنى على سوسير بوصفه الرائد الذي وضع أسس التصور الصحيح للأنثروبولوجيا. ولكن قبل ذلك بخمسة عشر عاماً كان شتراوس في مقال له يعد فاتحة عصر بعنوان «التحليل البنيوي للألسنية والأنثروبولوجيا» قد اعتمد على مفاهيم الألسنية ومناهجها في تأسيس بنيويته الخاصة.

وفي هذه المقالة يتحدث ليفي شتراوس عن نواحي التقدم التي أحرزتها الألسنية، بخاصة في مجال الفونولوجيا، التي جعلت منها حقلاً معرفياً علمياً. ويلاحظ أن الفونولوجيا لا تملك إلا أن تؤدي الدور المجدد نفسه للعلوم الاجتماعية، الذي تؤديه الفيزيكا النووية -- مثلاً -- للعلوم الصحيحة المنضبطة. وهو يطرح رأيه في أن تتبع الأنثروبولوجيا المثل الألسني، وتعيد إنتاج شيء في حقولها الخاص يضاهي «الثورة الفونولوجية». إن الفونولوجيا تدرس العلاقات بين الألفاظ، أي نظم العلاقات، وتنتقل من دراسة الظواهر التي أدركها أو عرفها المتحدثون بلغة ما بصورة واعية، إلى «بنيتها الأساسية اللاشعورية». ومعنى هذا أنها تحاول تحديد نظم العلاقات التي لا تكون معروفة إلا في الشعور الباطن. فما الدرس الذي يمكن أن تستخلصه الأنثروبولوجيا من هذا؟ يقول ليفي شتراوس إنه مثل على المنهج؛ فمن أجل تحليل الظواهر الدالة، ومن أجل البحث في الأفعال والأشياء التي تحمل معنى، ينبغي أن يفترض المرء وجود نظام أساسي

من العلاقات، ويحاول رؤية ما إذا كان معنى العناصر أو الأشياء المفردة ليس نتيجة لتعارضها مع عناصر وأشياء أخرى فى نظام من العلاقات لا يدركه أبناء حضارة ما إدراكاً واعياً^(١).

وقد كان نيكولاى تروبتسكوى Nikolai Trubetzkoy فى كتابه الخصب المسمى «مبادئ الفونولوجيا» (١٩٣٩) قد حدد فى إيجاز الدلالات الضمنية المنهجية للنظرية الفونولوجية فى مجال العلوم الاجتماعية، ومن ثم حقق تقدماً للسيميولوجيا التى كان سوسير قد طرحها. فى الوقت الذى يعنى فيه عالم الأصوات Phonetician بخصائص الأصوات الكلامية الفعلية، يهتم عالم الأصوات اللغوية Phonologist بالملاح الفارقة التى تؤدى وظيفتها فى لغة بعينها؛ إذ يسأل عن وجوه الاختلاف الصوتية، أيها يرتبط بوجوه الاختلاف فى المعنى، وكيف ترتبط العناصر الفارقة الواحد منها بالآخر، وكيف تلتئم لتشكيل الكلمات أو العبارات. ويستأنف تروبتسكوى مقررأ أن هذه الأعمال لا يمكن إنجازها بمنهج العلوم الطبيعية، التى تعنى بالخصائص الذاتية للظواهر الطبيعية ذاتها وليس بالملاح الفارقة التى لها أهمية اجتماعية. وبعبارة أخرى ليس فى العلوم الطبيعية شىء يتطابق مع الفارق بين اللسان والكلام؛ فليس فيها عادة أو نظام عرفى يكون موضوعاً للدراسة. ومن جهة أخرى تعنى العلوم الاجتماعية والإنسانية بالاستخدام الاجتماعى للأشياء المادية؛ ومن ثم يتحتم عليها التمييز بين الأشياء ذاتها، ونظام الملاح المميزة أو الفارقة الذى يمنحها المعنى والقيمة.

ويذهب تروبتسكوى إلى أن المحاولات التى بذلت لوصف هذه النظم تشبه العمل فى مجال الفونولوجيا. والمثل الذى يستشهد به هو دراسة الملابس، على نحو ما يمكن أن يقوم بها عالم الأنثروبولوجيا أو عالم الاجتماع؛ فكثير من ملاح الثياب البدنية ذاتها، التى قد تكون لها أهمية كبيرة لدى اللابسين، لا يكون له أهمية لدى علماء

(١) مقالة ليفى شتراوس منشورة فى كتابه «الأنثروبولوجيا البنوية» (New Structural Anthropology) (New York: Basic Books, 1963).

الأنثروبولوجيا، الذين لا يعنون إلا بتلك الملامح التي لها أهمية اجتماعية. ومن هنا فإن طول الثوب قد يحمل قدراً كبيراً من الأهمية في النظام الاجتماعي لحضارة ما، في حين أن المادة التي صنع منها لا تكون لها أهمية؛ أو لنقل إنني إذا كنت أفضل لبس ثوب أصفر على لبس ثوب رمادي، فقد يكون لهذا معنى اجتماعي كبير، ولكن حقيقة أن لدى ميلاً قوياً لإيثار الثياب الرمادية على الثياب البنية، أو أنني أكره المواد الصوفية، قد تكون تفضيلاً شخصياً ليست له أهمية اجتماعية. وكما يحاول علماء الأصوات اللغوية تحديد أي وجوه الاختلاف في الصوت يحمل المعنى وأيها لا يحمل معنى، فكذلك قد يحاول علماء الأنثروبولوجيا أو علماء الاجتماع وهم يدرسون الملابس أن يعزلوا تلك الملامح الخاصة بالثياب التي لها أهمية اجتماعية. إنهم يحاولون إعادة بناء نظام العلاقات والفروق التي تمثلها أفراد المجتمع، والتي يبرزونها من خلال تناولهم لثياب بعينها من حيث إنها تشير إلى أسلوب حياة بعينه، أو إلى دور اجتماعي. أو موقف اجتماعي، إنهم - في إيجاز - يهتمون بتلك الملامح التي تتحول الثياب عن طريقها إلى علامات.

إن علماء الأنثروبولوجيا أو علماء الاجتماع يحاولون - شأنهم شأن علماء اللغة - الكشف عن المعرفة الكامنة التي تعين الناس في مجتمع بعينه على التواصل فيما بينهم، وفهم كل منهم لسلوك الآخر؛ والحقائق التي يحاولون شرحها هي الحقائق المتعلقة بالمعرفة الضمنية، كان يُنظر إلى فعل بعينه على أنه فعل مهذب، في حين يكون فعل آخر غير مهذب؛ أو أن ثوباً بعينه يلائم في موقف ولا يلائم في آخر، وهكذا؛ فحيثما كانت هناك معرفة أو كان هناك تفوق من أي نوع، كان هناك نظام يقبل الشرح. وهذا هو المبدأ الأساسي الذي يوجه عملية استنباط المجهول على أساس المعروف في انتقالها من الألسنية إلى الحقول المعرفية الأخرى. فإذا قلنا إن المعاني التي يضيفها أبناء حضارة ما على الأشياء أو الأفعال ليست عشوائية صرفاً، فعندئذ لا بد أن يكون هناك نظام سيميوطيقي للفروق والمقولات وقواعد الترابط، التي ربما داعبنا الأمل في وصفها.

وهكذا يستطيع المرء أن يعزو إلى السيميوطيقا حقلاً واسعاً من البحث . فإذا قلنا إن كل شيء له معنى فى إطار حضارة ما هو علامة، وهو - من ثم - موضوع بحث سيميوطيقى، فإن السيميوطيقا ستمتد عندئذ لتشمل معظم الحقول المعرفية الخاصة بالعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية .

وهكذا فإن أى ميدان من ميادين النشاط الإنسانى - سواء كان هو الموسيقى، أو العمارة، أو الطبخ، أو اللياقة، أو الإعلان، أو الطرز المحدثه (المودة)، أو الأدب - يمكن مقارنته على أساس سيميوطيقى .

وربما تمثل الاعتراض المباشر على قيام السيميوطيقا الواسعة النفوذ(*)، التى حاولت بهذه الطريقة أن تبسط جناحها على عدد كبير من الحقول المعرفية الأخرى، فى أن الظواهر الدالة التى يواجهها الإنسان فى هذه الميادين المختلفة ليست جميعاً متشابهة . حتى لو كانت أغلبية الأشياء والفعاليات علامات فإنها ليست علامات من النمط نفسه . وهذا اعتراض مهم، يجعل من واجبات السيميوطيقا الرئيسية التمييز بين أنماط العلامة المختلفة، التى قد يتطلب الأمر دراستها بطرق مختلفة .

وقد طُرحت أشكال مختلفة من تنميط العلامات، ولكن تبرز من بينها ثلاثة أنواع أساسية تتطلب مقاربات مختلفة هى : الصورة icon، والمؤشر index، والعلامة بمعناها الصحيح (التى تسمى أحياناً الرمز symbol؛ وهى تسمية مضللة) . إن العلامات قاطبة تشتمل على دال ومدلول؛ على شكل ومعنى أو معان تتعلق به؛ ولكن العلاقات بين الدال والمدلول تختلف فى هذه الأنماط الثلاثة من العلامة؛ فالصورة تشتمل على شبه حقيقى بين الدال والمدلول . إن صورة أحد الأشخاص النصفية لا تدل على هذا الشخص الذى هى صورته عن طريق العرف الاعتيادى بقدر ما تدل عليه من خلال شبهها به . وفى حالة المؤشر تكون العلاقة بين الدال والمدلول سببية؛ فالدخان يعنى النار، لأن النار

(*) وصف المؤلف السيميوطيقا هنا بانها إمبريالية imperialistic، وقد آثرنا استخدام صفة « الواسعة النفوذ » تجنباً للظلال السياسية التى ترتبط بكلمة الإمبريالية لدى القارئ العربى . (المترجم) .

بصفة عامة هي سبب الدخان؛ والسحب تعنى المطر، إذا كانت من ذلك النوع من السحب التي تسقط مطراً؛ وآثار الأقدام هي علامات على نمط الحيوان الذي يرجح أن يكون قد أحدثها. ومع ذلك ففي حالة العلامة بالمعنى الصحيح تكون العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية وعرفية؛ فالمصافحة بالأيدي تدل من الناحية العرفية على التحية؛ والجبن طعام ملائم بحكم العرف لإنهاء وجبة الطعام.

ما الدلالات الضمنية لهذا التقسيم الثلاثي بالنسبة إلى السيميوطيقا؟ إن النتيجة الرئيسية تتمثل في جعل العلامة بالمعنى الصحيح هي الموضوع المركزي للسيميوطيقا، وفي جعل دراسة العلامات الأخرى نشاطاً متخصصاً وثانويًا. إن دراسة الكيفية التي يمثل بها رسم أو تمثل بها صورة فوتوغرافية لفرس ما هذا الفرس ربما شكلت طرفاً من السيميوطيقا؛ ولكن يبدو أن هذا أنسب أن يكون اهتمام نظرية فلسفية في التصوير من أن يكون سيميوطيقا قائمة على أساس لغوي؛ فالواجب في السيميوطيقا أن تحدّد العلامات التصويرية iconic signs وتشخصها؛ ولكن دراسة الصور لا ينتظر أن تكون فعالية من فعاليتها المركزية.

والمؤشرات أكثر إزعاجاً؛ فلو أن المرء وضعها في ميدان السيميوطيقا لبدأ عندئذ أنها تتخذ من المعرفة البشرية قاطبة دائرة اختصاصها. ذلك بأن أي علم يحاول أن يقيم علاقات سببية بين الظواهر يمكن أن يرى بوصفه دراسة للمؤشرات، وأن يوضع - من ثم - في إطار السيميوطيقا. وعلى سبيل المثال يحاول الطب أن يربط بين الأمراض والأعراض؛ فاكتشاف أعراض المرض معناه تحديد العلامات التي تنم عن وجود ذلك المرض، ومعناه - على نحو معكوس - معرفة الشيء الذي تعد هذه الأعراض علامات عليه. كذلك يحاول علم الأرصاد الجوية، أن يقيم نظاماً من أجل أن يربط الظروف الجوية بأسبابها ونتائجها، وأن يقرأها - من ثم - بوصفها علامات؛ أي علامات على الظروف الجوية. وأيضاً فإن التنبؤ الاقتصادي يعتمد على القراءة الصحيحة للعلامات الاقتصادية. وعلم الاقتصاد هو حقل المعرفة الذي يحدد هذه العلامات، ويمكن المرء من

قراءتها. وفي إيجاز أقول إن هناك نطاقاً بكامله من الحقول المعرفية يحاول أن يحل شفرة العالم الطبيعي أو الاجتماعي، وإن مناهج هذه الحقول المعرفية مختلفة، وليس هناك سبب للاعتقاد بأنها ستحرز كسباً جوهرياً بانضوائها تحت لواء سيميوطيقا واسعة النفاذ.

أما العلامات بالمعنى الصحيح، حيث العلاقة بين الدال والمدلول اعتبارية أو عرفية، فهي - إذن - الميدان المركزي للسيميوطيقا. إنها تتطلب البحث السيميوطيقي إذا ما أريد فهم آلياتها. وفي حالة غياب الرابطة السببية بين الدال والمدلول، التي قد تعين المرء على تناول كل علامة على حدة، يتحتم على المرء أن يحاول أن يعيد بناء النظام السيميوطيقي؛ أى نظام الأعراف، الذى تشتق منه مجموعة كاملة من العلامات. ولأن العلامات المفردة على وجه التحديد لم تحدد أسبابها، فقد وجب على المرء أن يحاول إعادة بناء النظام، الذى يستطيع وحده أن يشرحها.

ومع ذلك لا يستطيع المرء أن يستبعد المؤشرات كلية من ميدان السيميوطيقا؛ لأنها تشكل حالة وسطا لها طرافتها ولها أهميتها. والحقيقة أن أى مؤشر قد يستخدم بوصفه علامة عرفية. وما إن تعترف حضارة ما بالعلاقة السببية أو الإشارية بين دال ومدلول، حتى يصبح الدال المعين متحداً بمدلوله، ويمكن استخدامه فى استشارة ذلك المعنى حتى فى الحالات التى لا تشتمل على علاقة سببية. فما إن يصبح مسلماً به بصفة عامة أن الدخان يعنى النار، حتى يكون فى مقدورى استخدام الدخان الذى يصدر عن آلة تصنع الدخان للدلالة على النار، حتى وإن لم يكن الدخان فى هذه الحالة قد أحدثه نار. وهنا يستخدم المؤشر بوصفه علامة عرفية.

ويمكن - بطبيعة الحال - استخدام كثير من المؤشرات بوصفها علامات عرفية فى هذه الطريقة المسرحية؛ فإذا أعد ممثل لأن يبدو كما لو كان مصاباً بالحصبة، فإننا نقرأ بثوره بوصفها دالة على الحصبة بطريقة عرفية، ولا نصدق أن البثور فى حالته هذه ترتبط بالحصبة ارتباطاً سببياً. ولكن هناك مجموعة كبيرة من المؤشرات العرفية التى تهتم على

وجه الخصوص عالم السيميوطيقا لأنها تقوم بتشكيل الميثولوجيا الاجتماعية العرفية فى حضارة ما . وربما كان ما نسميه «رموز الوضع Status Symbol» أفضل مثال لهذا؛ فهذه ليست على وجه الدقة مؤشرات إلى الوضع، ولكنها رموز للوضع؛ ومع أن لها نوعاً من العلاقة السببية أو الذاتية مع الوضع الذى تدل عليه، فقد ترقى بها أعراف المجتمع إلى مكانة الرمز، كما أنها تحمل من المعنى أكثر مما قد تستتبع طبيعتها السببية أو الإشارية . وعلى هذا فإن سيارة رولزرويس هى بالتأكيد مؤشر إلى الثروة، بمعنى أن المرء لا بد أن يكون ثرياً حتى يمتلك واحدة مثلها؛ ولكن العرف الاجتماعى قد جعل منها رمزاً للثروة؛ أى موضوعاً أسطورياً يدل على الثروة على نحو أكثر فى إلحاحه مما تدل عليه موضوعات أخرى قد تكون مساوية له فى غلاء ثمنها؛ فقد أفرد الاستعمال الاجتماعى من بين الموضوعات الكثيرة التى هى مؤشرات للثروة من حيث إنها جميعاً غالبية الثمن – أفرد بوصفه رمزاً للثروة . والمؤكد أن السيميوطيقا التى تدرس الحياة الاجتماعية بوصفها نظاماً من العلامات سترغب فى أن يشتمل ميدانها على هذا النوع من المؤشرات العرفية (١) .

كذلك فإن المؤشرات تدخل ميدان السيميوطيقا بطريقة أخرى . ذلك بأن معانى المؤشرات تتغير فى علوم باعياتها مع أشكال المعرفة، وعلى سبيل المثال تُقرأ الأعراض الطبية وتفسر على نحو مختلف من حقبة زمنية إلى أخرى، حيث تتقدم المعرفة؛ فهناك تغيرات تصيب على السواء ما هو محدد بأنه أعراض والطريقة التى تفسر بها الأعراض . ومن ثم يصبح من الممكن للسيميوطيقا أن تدرس التغيرات فى مجال الطب بوصفها نظاماً تفسيرياً، أى طريقة فى قراءة العلامات وتحديددها، وسيكون ذلك محاولة لاستكشاف الأعراف التى تحدد الخطاب الطبى لحقبة ما أو تجعله ممكناً، وتسمح بقراءة المؤشرات . وفى هذا البحث سوف يهتم السيميوطيقى لا بالأعراض أو المؤشرات ذاتها،

(١) لمعرفة هذا الجانب من السيميوطيقا، انظر رولان بارت فى كتابه ميثولوجيات Mythologies، المنشور فى: New York: Hill & Wang 1972، وعلى وجه الخصوص المناقشة النظرية المهمة التى اشتملت عليها المقالة الأخيرة .

ولا بالعلاقة السببية «الحقيقية» بين المؤشر والمعنى، ولكن بقراءة المؤشرات في إطار منظومة من الأعراف.

ما ميدان السيميوطيقا إذن؟ وإلى أى مدى تمتد امبراطوريتها؟ من الواضح أن حدودها ستكون متغيرة؛ فهناك أشياء كثيرة يمكن تناولها سيميوطيقياً وإن لم تتطلب بالضرورة دراستها بهذه الطريقة. والواقع أنه لكي يشخص المرء ميدان السيميوطيقا ينبغي له أن يحدد في بساطة أنواع الحالات المختلفة التي يمكنها مواجهتها.

١ - في الصميم من العمل السيميوطيقي هناك منظومات من العلامات العرفية مستخدمة للاتصال المباشر. وهذه المنظومات تشتمل - أول ما تشتمل - على الشفرات المختلفة المستخدمة في نقل الرسائل المؤلفة في لغة طبيعية قائمة، كاللغة الإنجليزية. ويمكن لشفرة مورس، وشفرات جهاز تنظيم مرور القطارات، وطريقة برايل في الكتابة، وكل الشفرات التي ابتكرت للسرية - يمكن لها أن تستخدم في نقل رسالة إنجليزية. ثم إن هناك - ثانياً - سلسلة كاملة من الشفرات المتخصصة، المستخدمة لنقل نمط بعينه من المعلومات إلى مجموعات من الناس قد لا يشتركون في معرفة هذه اللغة الطبيعية نفهسا، كالرموز الكيميائية، والإشارات الخاصة بالمرور، وعلامات الطريق، وعلامات دمغة الفضة، والرموز الرياضية، والعلامات المستخدمة في المطارات والقطارات.. إلخ، وأخيراً الرمزيات المبهمة الخاصة بالشفرات الشعارية أو الشفرات الكيميائية^(١). وكل هذه الحالات تشتمل على علامات عرفية، قائمة على أساس شفرات صريحة. ولما كانت هذه الشفرات قد أعدت من أجل الاتصال السهل والخالي من الغموض، فقد كان هناك إجراء صريح لعملية التشفير وحل الشفرات، كالكشف عن المادة موضع البحث في كتاب عن الشفرات. وهذه الشفرات أمثلة صريحة على النظم السيميوطيقية؛ ولكن لأنها -

(١) انظر مناقشة مونان لنظم كثيرة من هذا النوع في:

Georges Mounin, Introduction à La Sémiologie (Paris: Minuit, 1970).

تحديداً - على هذا القدر من الوضوح، يصبح من الأمور السهلة وصف المبادئ التي أقيمت على أساسها؛ ومن ثم فإنها غالباً ما تثبت أنها تفوق في ضآلة ما تثيره من الاهتمام ضآلة وضوحها، وأنها نظم أكثر تعقيداً، تندرج في الصنف التالي من تصنيفنا.

٢ - والشفرات التي تفوق في تعقيدها وضوحها هي نظم يحدث فيها الاتصال دون شك، ولكن يكون من الصعب تأسيس الشفرات التي يعتمد عليها الاتصال، كما يكون غاية في الإبهام أو الانفتاح. وهذه هي الحال بالنسبة إلى الأدب - على سبيل المثال؛ فالمرء لكي يقرأ الأدب ويفهمه يتطلب ما هو أكثر من المعرفة باللغة التي كتب بها، ولكن التحديد الدقيق لما تمس الحاجة إليه من المعرفة التكميلية من الصعوبة بمكان. والمؤكد أن المرء لا يتناول ذلك النوع من الشفرات التي يمكن أن تفيد فيه المفاتيح أو كتب الشفرة، ومع ذلك فلأن المرء يتناول على وجه التحديد نظاماً في الاتصال غاية في الشراء والتعقيد، يمكن أن تكون للدراسة السيميوطيقية للأدب وللشفرات الجمالية الأخرى (كثلك الشفرات الخاصة بالتصوير والموسيقى) أهمية فائقة.

والسبب في تعقيد هذه الشفرات المراوغ بسيط للغاية؛ فشفرات النمط الأول قد أعدت لكي توصل على نحو مباشر ودون إبهام رسائل وأفكاراً معروفة من قبل؛ فالشفرة تقدم رموزاً مختصرة للأفكار المحددة سلفاً. ولكن التعبير الجمالي يهدف إلى توصيل الأفكار، واللطائف الذهنية، والأشياء المعقدة التي لم تتشكل بعد؛ ومن هنا فإنه عندما تصبح شفرة جمالية مفهومة على وجه العموم بوصفها شفرة (بوصفها طريقة في التعبير عن الأفكار التي سبق تشكيلها)، تميل الأعمال الفنية عندئذ إلى مجاوزتها. إنها ترتاب فيها، وتسخر منها، وتهبط بقيمتها بصفة عامة، في الوقت الذي تستكشف فيه تحولاتها وامتداداتها الممكنة. وربما ذهب المرء إلى أن كثيراً من أهمية الأعمال الفنية يكمن في الطرق التي تستكشف بها هذه الأعمال الشفرات وتعديل منها؛ أي الشفرات

التي يبدو أنها تستخدمها. وهذا ما يجعل البحث السيميوطيقي في هذه النظم وثيق الصلة بالموضوع وبالغ الصعوبة على السواء.

٣ - والحالة الثالثة التي ينبغي أن تواجهها السيميوطيقا تشمل الممارسات التي قد لا تبدو للوهلة الأولى متضمنة الاتصال ولكنها تكون على درجة عالية من التشفير، كما أنها تستخدم سلسلة كاملة من الفروق لكي تخلق المعنى. والأنواع المختلفة من الطقوس ومظاهر اللياقة، وكذلك نظم العرف التي تتحكم في الطعام والملبس، من الواضح أنها نظم سيميوطيقية؛ فتفضيل طاقم من الملابس على آخر هو توصيل لشيء ما وإن كان غير مباشر، ولكن المرء في وسعه أن يمضى قدماً وأن يقول إن الأبنية التي نسكن فيها، والأشياء التي نشترها، والأفعال التي نقوم بها، لها أهميتها عند السيميوطيقي، لأن كل المقولات والعمليات التي اكتسبت المعنى من خلالها هي سيميوطيقية أساساً. وليس معنى هذا أن يقال إن شراء منزل - مثلاً - هو فعل اتصال في الدرجة الأولى أو بصورة أساسية، بل معناه لا يعدو أن الفرق بين المنازل قد اكتسب معنى عن طريق النظام السيميوطيقي، وأن المرء في اختياره لمنزل دون غيره إنما يتعلق بالصورة التي أبرزها المنزل المعين (كوخ ريفي، أو بيت من الحجر الرملي البني، أو بيت من الطراز الفكتوري الذي يستوعب أسرتين). وقد يختار المرء - لأسباب عملية صرف - أن يشتري منزلاً تبدو صورته غير ملائمة، ولكن المرء مع ذلك يظل منخرطاً في نظام سيميوطيقي. والمهمة المنوطة بالمحلل في تناوله للملبس، والأشياء المتعلقة بالتجارة، والمسليات، والمنتجات الصناعية، والأنشطة الأخرى، هي الكشف عن المعاني الضمنية التي يبدو أنها تحملها، وإعادة بناء نظام الإيحاءات التي قامت هذه المعاني على أساسها.

٤ - وأخيراً هناك الحالات التي أضعها جانباً لكونها تشتمل على مؤشرات أكثر منها علامات بمعنى الكلمة؛ وتمثل في الحقول المعرفية الخاصة بالعلوم الاجتماعية والطبيعية، التي تحاول أن تقيم علاقات من السبب والنتيجة بين الظواهر، والتي

يرجح أن يكون معنى الشيء أو الفعل فيها هو السابقة أو النتيجة السببية؛ أى معناها فى سياق سببى . وكما ذكرت من قبل فإن هذه النظم المعرفية على الرغم من أنها فى ذاتها ليست سيميوطيقية، لا يعنى هذا أنه يجوز للسيميوطيقى أن يصرف اهتمامه عنها . إن الموضوعات التى تدرسها هذه الحقول المعرفية ليست علامات بالمعنى الصحيح، ولكن الحقول المعرفية ذاتها، بوصفها «لغات» أو نظاماً للتشكيل، يمكن دراستها بوصفها نظاماً سيميوطيقية .

ويتضح لنا هذا فى حالة العلوم التى ضعفت الثقة فيها، كعلم التنجيم؛ فما دمتنا لانثق فى العلاقات السببية التى يقيمها علماء التنجيم بين حركات الكواكب والاحداث التى تقع فى حياة الناس، يصبح من اليسير النظر إلى علم التنجيم على أنه نظام من الاعراف . وسوف يتساءل السيميوطيقى الذى يدرس علم التنجيم عن القواعد أو الاعراف التى استخدمها المنجمون حين كانوا يعزون المعنى إلى صور السماء، ثم ما الاعراف التى كان على المرء أن يقبلها من أجل أن يكون منجماً؟

لن نتردد فى التسليم بأننا نتناول هنا نظاماً من العلامات يمكن شرحه وتوضيحه، ولكننا فى الحقيقة إذا فكرنا فى المسألة أمكننا أن نرى أن تحليلنا السيميوطيقى لن يكون مؤثراً تائيراً جوهرياً إذا برهنت الكشوف المستقبلية على أن كل ما قاله المنجمون صحيح . وسوف تظل القواعد نفسها تشكل أساس الخطاب التنجيمى، سواء صدقت النبوءات التى قدمها أو كانت كاذبة . وعلى هذا يمكننا أن نمتد بحدود السيميوطيقا بعض الشيء؛ ففى وسع السيميوطيقا أن تدرس الاعراف التى تحكم خطاب أى حقل معرفى وتفسيراته، ولكن لنلاحظ ما يتضمنه هذا؛ فعند السيميوطيقى لن يكون لصدق الموضوعات فى حقل معرفى ما أو كذبها علاقة بالموضوع؛ فإذا كان كل ما يؤكده علم النبات اليوم قابلاً للدحض، فإن هذا لن يؤثر فى التحليل السيميوطيقى لأعراف علم النبات بوصفها نظاماً من العلامات؛ فعلم النبات ليس مجموعة البيانات الصحيحة المتعلقة بأنواع النبات، ولكنه نظام من الخطاب . ويمكن فى أى حقبة معينة أن تقال حقاً أشياء كثيرة للغاية عن أنواع النبات التى لا تقع فى مجال علم النبات (كان يقال مثلاً إن

الوزود تهذب بصورة منتظمة، وإن الهندباء البرية تجتث من جذورها بصورة منتظمة)، كما أن السيميوطيقى يهتم بالأعراف التي تستبعد بعض البيانات في مجال علم النبات وتسمح لغيرها بالدخول فيه. ومع أن بعض الحقول المعرفية (كالطب، والأرصاد الجوية، والتحليل النفسى، والتنجيم) قد تستجيب على نحو أيسر للتحليل السيميوطيقى، من حيث إنها أكثر عناية بقراءة العلامات وتفسيرها، فإن أى نظام للخطاب فى الواقع يمكن دراسته سيميولوجيا فى هذا المستوى مادام هو نفسه نظاماً من العلامات.

التحليل السيميوطيقى:

لقد أدت الألسنية دورها بوصفها نموذجاً للسيميوطيقا، ولفتت النظر - كما يذهب سوسير - إلى الطبيعة العرفية للعلامات والطبيعة الفارقة للمعنى. ولكن ربما صار من الواضح من خلال التنوع فى نظم العلامة التى ذكرتها أن مفاهيم التحليل اللغوى وتقنياته ربما كانت أكثر ملاءمة للبحث فى بعض النظم دون بعضها. وفى كل الحالات يميز المحلل بين اللسان والكلام، ويحاول أن يجاوز الأفعال أو الأشياء ذاتها إلى نظام القواعد والعلاقات الذى يمكنها من أن يكون لها معنى. وسيكون المرء فى معظم الحالات قادراً على تحديد العلاقات السياقية والعلاقات التبادلية؛ أى العلاقات بين العناصر التى يمكن أن تأتلف لتشكّل وحدات من مستوى أعلى، وعلاقات بين العناصر التى يمكن أن يحل بعضها مكان بعض، والتى يتعارض بعضها مع بعض من أجل إنتاج المعنى. ولكن تركيب الجملة فى بعض النظم يكون أضعف من أن ينشئ علاقات سياقية لا وجود لها فى الغالب؛ فعلامات المرور - مثلاً - لا تشتمل عموماً على الجمع بين أكثر من وحدة، أو إذا هى كانت تشتمل على ذلك (كما هو الشأن فى العلامات التى يدل فيها الشكل على وجود خطر وتعين الأداة نوع هذا الخطر)، فإن العلاقة السياقية تكون غاية فى البساطة وفاقدة للأهمية. وعلى نحو بديل من هذا تكون جملة التعارضات التبادلية الأولية فى بعض النظم محددة للغاية؛ ففى شفرة مورس - على سبيل المثال - ليس هناك سوى تعارضين اثنين: الجلبة الصوتية فى مقابل الوقف، والقصير فى مقابل الطويل. كذلك فإن مشاعر الكراهية عند ليفيتيكس تُحدد قائمة

بأنواع الحيوان التي يصرح للمرء بأكلها، والتي يحرم عليه أكلها. وفي وسع المرء - مع شيء من البراعة - أن يعيد بناء نظام القواعد التي تضيف الأهمية على أنواع بعينها من الحيوان؛ ولكن هذا النظام لا ينتج سوى معنيين اثنين: نظيف وغير نظيف (بمعنى مسموح به ومحرم).

ولكن يبدو حقاً في معظم النظم أن هناك علاقات سياقية، وتعارضات تبادلية، وجملة متنوعة من المعاني التي يمكن أن تنتجها التعارضات والعلاقات. ففي نظام الطعام - مثلاً - يجد المرء في المحور السياقي مجموعات ألوان الطعام التي يمكن أن تكون وجبات من أنواع مختلفة، وكل لون منها أو شريحة يمكن أن يكون واحدة من صحاف كثيرة تتعارض الواحدة منها بالتبادل مع الأخرى (لن يجمع المرء بين شواء من لحم البقر وشرائح من لحم الحمل في وجبة واحدة، ولكن أحدهما يكون بديلاً من الآخر في أى قائمة طعام)، وهذه الصحاف التي يكون بعضها بديلاً من بعض غالباً ما تحمل معاني مختلفة من حيث إنها توحى بدرجات مختلفة من الترف، والأناقة، وما إلى ذلك.

وتنشأ الصعوبة في كثير من النظم السيميوطيقية من حقيقة أنها تعتمد على نظم أخرى، وعلى نظام اللغة خصوصاً، ومن ثم تصبح نظاماً من «الدرجة الثانية». والأدب واحد من هذه النظم؛ فهو يتخذ اللغة أساساً، وأعرافه الإضافية هي أعراف تتعلق بالاستخدامات الخاصة للغة. ومن هنا يمكن النظر إلى العناصر البلاغية - إذا شئنا مجرد مثل - كالأستعارة والكناية والمبالغة والمجاز المرسل بوصفها عمليات في شفرة أدبية من الدرجة الثانية. وعندما كتب شيكسبير يقول: «ولكن الصيف الأبدى لن يتبدد»، كانت كلماته علامات ذات معنى أدبي في حدود الشفرة اللغوية للغة الإنجليزية، ولكن عنصر الأستعارة البلاغى يشكل هنا جزءاً من شفرة أدبية من الدرجة الثانية، يسمح للمرء باستخدام العلامتين اللغويتين - الصيف الأبدى - لكى تعنيا شيئاً شبيهاً بقولنا «إنه جمال رقيق كل الرقة حتى إنه سيبقى على الدوام فى ذروته». وعلاوة على هذا فإن العرف فى شعر الحب يصنع هذا النوع من الإطراء المبالغ فيه، معتمداً على الأستعارات المأخوذة من الطبيعة والعمليات الطبيعية فى شكل ملائم من المدح.

والآن، يصبح من الواضح أن نظام الأدب - أي المعرفة التي ينبغي للمرء أن يحملها، والتي تجاوز المعرفة باللغة، من أجل أن يقرأ وأن يفسر الأعمال الأدبية - لا يشتمل على شفرات محددة كتلك التي تتعلق بعلامات المرور وباللياقة. إن في وسع المرء أن يتعرف الطرق المختلفة في تفسير اللغة المجازية، وأن يتعرف الأعراف التي تحكم الأجناس الأدبية المختلفة، والبناء أو التكوين العضوي للأدب، ولكن الأدب يحط على الدوام من قيمة أي شيء يهدد بأن يصبح شفرة صارمة أو قواعد محددة للتفسير ويسخر منه ويتجنبه. إن علامات المرور لا تنتهك شفرة علامات المرور، ولكن الأعمال الأدبية دائمة الانتهاك للشفرات؛ والسبب في هذا هو أن الأدب - أساساً - استكشاف لإمكانات التجربة، ومراجعة للتصنيفات التي اعتدنا أن نبصر فيها ومن خلالها أنفسنا والعالم، إن الشفرات الأدبية تؤدي دوراً مهماً من حيث إنها تجعل عملية المراجعة أو الكشف هذه ممكنة، على النحو نفسه الذي تهيء به قواعد اللياقة إمكانية أن يخفى المرء بها موقفاً غير لائق. ولكن الأعمال الأدبية لا تكمن مطلقاً بصورة تامة في الشفرات التي تحددها. وهذا هو ما يجعل البحث السيميوطيقي في الأدب عملاً مضميناً (١).

وقد كشف سوسير في سلسلة من التأملات في الأساطير الألمانية في العصور الوسطى عن اهتمامه بالجوانب السيميوطيقية في الأدب، وعن وعيه ببعض المشكلات التي تطرحها. وقد كتب يقول إن الأسطورة: «تتألف من سلسلة من الرموز بمعنى ما يظل في حاجة إلى تحديد». وعلى الرغم من أن تحديد هذه الرموز أصعب من تحديد عناصر لغة ما فإنها محكومة بلاشك بالمبادئ نفسها التي تحكم العلامات الأخرى، «إنها جميعاً تشكل جانباً من السيميولوجيا» (٢)، وفي حالة الأدب، كما هو الشأن في حالة اللغة

(١) لمزيد من المعرفة الخاصة بدراسة الأدب بنيوياً وسيميوطيقياً، انظر كتاب المؤلف:

Structuralist Poetics: Structuralism, Linguistics and The study of Literature (Ithaca: Cornell University, Press, 1975).

Jean Starobinski: Words Upon Words (New Haven: Yale University Press, 1979), (٢) P. 5.

حيث يستخرج ستاروبينسكي مواد من مفكرات سوسير عن الأساطير، وكذلك مناقشاته لظاهرة التقلاب والتباديل.

والنظم السيميوطيقية الأخرى، تصبح المشكلة الجوهرية هي مشكلة التحديد. ذلك بأن المرء لا يتناول علامة ثابتة، بحيث يظل للشكل المعين المعنى نفسه حيثما ظهر، ولكن الأمر على النقيض؛ إذ يظل العمل الأدبي يعتمد على علامات وجودها سابق له، «رابطاً» بينها، ومستخرجاً منها على الدوام معانى جديدة». والواقع أن سوسير إذ نظر فى مشكلة الشخص فى أساطيره الألمانية، توصل إلى نتيجة مؤداها أن المرء يواجه بسلسلة كاملة من العناصر (كالأسماء الحقيقية، والصفات، والعلاقات مع الشخص الأخرى، والأفعال)، وأن ما يتكلم عنه المرء بوصفه شخصية رجل أو امرأة هو من ابتكار القارىء، ونتيجة للجمع والربط بين كل العناصر المتباينة التى يواجهها القراء وهم يتقدمون فى قراءة النص^(١).

لقد عثر سوسير هنا عن طريق المصادفة على نظام مهم للعرف فى الأدب. ذلك أن صنع الشخصيات تحكمه النماذج الحضارية التى تمكننا - على سبيل المثال - من الاستدلال على الدوافع من الفعل، أو صفات الشخصية من سلوكها ومظهرها. وعلى هذا فإننا إذا قلنا إن الشخصية تتغير فى مسار رواية أو حكاية بعينها فإن هذا الذى نقوله يعنى أنه على أساس من نماذجنا الأدبية الخاصة بالشخصية قد يتعارض أو يتضارب فعلاً أو صفتان منسوبتان إلى شخصية مفردة؛ فنحن نذهب - وفقاً لتصوراتنا للشخصية - إلى أنه إذا صنع واحد من الناس الفعل س ثم صنع فيما بعد الفعل ص فإننا لن نستطيع إدراك المراد من هذا إلا أن نقول إن الشخصية تغيرت.

التقابل والتباديل (*) ومركزية العقل :

تعد ملاحظات سوسير حول سيميولوجيا الأدب أولية، وإن كانت تنطوى على

(١) اقتباس لدى D'Arco Silvio Avalle فى مقاله «سيميولوجيا النص عند سوسير» La Sémiologie de La Narrativité chez Saussure, Bouazis C. (ed.).

المنشور فى : .Essais de La théorie du texte (Paris: Golilée, 1973), P. 33.

(*) ما أسماه الخليل بن أحمد فى مقدمته لكتاب العين التقلبيات هو ما أسميته هنا التقابل والتباديل، ترجمة للمصطلح anagrams، والعدول الطفيف عن مصطلح الخليل إنما قصد به احتمال المصطلح الجديد على كل أشكال التقلب والتبديل التى لا تمثل تقلبيات الخليل سوى شكل منها. الأمر إذن =

بصيرة نافذة. ولكنه كرس وقتاً طويلاً من سنواته الأخيرة لعمل آخر وثيق الصلة بهذا، وترك عدداً ضخماً من الملاحظات وإن لم يغامر قط بنشر أى شىء فى الموضوع. لقد طور النظرية القائلة إن الشعراء اللاتينيين كانوا يخفون عن عمد فى أشعارهم التقلاب والتباديل التى يحدثونها فى الأسماء الحقيقية. وقد اعتقد أنه استكشف نظاماً إضافياً للعلامة، أو جملة خاصة من الأعراف لإنتاج المعنى، وملا كثيراً من المفكرات بملاحظات خاصة بالأنماط المختلفة للتكرار وللتقلاب والتباديل التى كان قد استكشفها (كالحروف المبعثرة خلال النص، أحياناً تكون فى نظامها الصحيح، وأحياناً مع تغيير فى الترتيب، وأحياناً تكون فى ثنائيات أو ثلاثيات .. إلخ). وقد كتب يقول إن هذا السطر -Taura- الكامل لاسكيو Scipio (فى المقاطع ci + pi + io بالإضافة إلى حرف الـ S فى Samnio Cepit، الذى يعد الحرف الأول من مجموعة تظهر فيها كلمة Scipio كاملة تقريباً ..)^(١). ومرة أخرى يستكشف سوسير فى الثلاثة عشر سطرًا الافتتاحية من كتاب لوكريئس المسمى طبائع الأشياء De Rerum Natura، التى تعد ابتهاً إلى فينوس - يستكشف ثلاث صور من التقلاب والتباديل لاسم الإلهة الإغريقية أفروديت.

= يجاوز تقلب حروف ك ل م مثلاً لاستخراج ملك، ولكم، وكمل منها، إلى جملة الحالات التى ترد الإشارة إليها فى هذا الكتاب. ومعروف أن الشعراء العرب قد التفتوا إلى هذه الإمكانية اللغوية وتلاعبوا بها مختلف ألوان التلاعب. ومن أقدمهم ابن الرومى الذى عرف بتطيره، أرسل إليه أحد الأمراء خادماً له يدعوه إليه، كان اسمه «إقبال» حتى يتفاهل به ابن الرومى، ولكن ابن الرومى ما كاد يهجم بالخروج معه حتى عدل وقال للخادم: اذهب إلى مولاك فانت ناقص، ومعكوس اسمك «لابقاء». وهو نفسه الذى قلب كلمة الموز ليستخرج منها أكثر من دلالة جديدة، وذلك فى قوله:

إنما الموز حين تمكن منه	كاسمه مبدلاً من الميم فاء
وكذا فقد العزير علينا	كاسمه مبدلاً من الزاى تاء
فهو الفوز مثلما فقد الموز	ت، لقد بان فضله لاخفاء

(المترجم).

وهذا المثال نموذجي تماماً، فقد كان سوسير يبحث عن التقابل والتبادل التي تقع في الأسماء الحقيقية المرتبطة بالأشعار، كما أنه كان يهتم بالتقابل والتبادل التي تتكرر في النص، وليس بالتقابل والتبادل التي تحدث عرضاً. لقد تكدست لديه مجموعة هائلة من الأمثلة والفروض المتعلقة بالقواعد التي تحكم تشكيل الصوت، ولكن كان هناك اعتباران أزعجاه وجعلاه يترك تأملاته دون أن تنشر. الاعتبار الأول يتصل بمسألة المقصد التي كانت حاسمة؛ فلو أن ذلك كان حقاً عرفاً في الشعر اللاتيني – أى عرفاً يأخذ به الشعراء أنفسهم – فلماذا إذن لم يكن هناك إشارات إلى هذه الممارسة أو مناقشات لها في النصوص الكلاسيكية؟ والاعتبار الثاني يتمثل في أن التحذير الذي ذهب إليه فيما يتصل بالاحتمال الإحصائي للتقابل والتبادل التي استكشفتها لم يكن حاسماً؛ فقد واجه موقفاً متناقضاً عندما لاحظ في مرارة أن المرء إذا وجد عدداً ضئيلاً من التقابل والتبادل كان ذلك مدعاة لاستبعادها، على أساس أنها نتائج المصادفة؛ فإذا وجد المرء عدداً كبيراً منها كان ذلك مدعاة للظن بأنها جميعاً من السهل الوقوع عليها، وأنها نتاج عادي لتكرار ستة وعشرين حرفاً^(١). وقد كتب في خطاب له يقول: «لست أذيع سرا حين أصرح بحقيقة أنني في حيرة أنا نفسي؛ وهذا فيما يتصل بأهم نقطة؛ وأعنى بها كيف ينبغي للمرء أن يحكم على المسألة كلها، ما إذا كانت حقيقة أو وهماً»^(٢).

والمسألة المهمة بطبيعة الحال هي كيف يتأتى لنا التفكير في ذلك؟ هل هو «جنون سوسير» كما أطلق عليه؛ أى هاجس جنون متسلط على عقله، أو هو – فيما ذهب إليه آخرون – بحث جذري في اللغة وفي العلامة على وجه الخصوص؟ هل كان سوسير قد استبدت بتفكيره مشكلة وهمية، أو أنه كان يبحث في جانب آخر من العملية الوظيفية للغة – أعنى جانباً يتجاهل الشفرات اللغوية العرفية وعلاقات العلامة؟

(1) Ibid, p. 99.

(2) Ibid, p. 105-6.

وفى وسعنا أن نقول فى حسم إن عمل سوسير فى مجال التقلاب والتباديل لم يكن بالنسبة إليه بحثاً فى العلامة أو دليلاً يشير إلى أن القراء أحرار فى إنتاج المعنى وفقاً لرغباتهم. لقد ذهب سوسير إلى أن التقلاب والتباديل تحكمها الاعراف الإضافية الصارمة، وأن استكشافها لم يكن شكلاً من أشكال التعبير عن الذات أو الهرب من حالة ضيق. أضف إلى هذا أن التقلاب والتباديل، أو «توزيعات الحروف» - على نحو ما كان سوسير يسميها فى بعض الأحيان - لم تكشف عن معنى مخرب وغامض ولكنها زودتنا بالفاظ أخرى (هى فى الواقع أسماء حقيقية) أكدت ما كان النص قد ناقشه من قبل؛ «فتوزيع الحروف hypogram يهتم اهتماماً كبيراً بتأكيد اسم أو كلمة، جاعلاً من تكرار مقاطعها عملاً أساسياً، ما نحا إياها بهذه الطريقة وجوداً ثانياً مخترعاً، يضاف - إذا صح التعبير - إلى الوجود الأصلي للكلمة»^(١). أما التقلاب والتباديل فهى أخرى أن تدعم المعنى الذى تحمله علامات أخرى فى النص من أن تقلص هذا المعنى.

ماذا يمكننا أن نقول عن نظرية سوسير؟ ربما سلكها المرء فى منظور تحليلي نفسى وقال إنه استكشف حالة خاصة لما يمكن أن يسمى «إلحاح الحرف على اللا شعور». فعندما يقرأ المرء شيئاً كان قد كتبه، يكون من باب التجربة المألوفة أن يستكشف المرء أنه كبر - دون أن يقصد إلى ذلك - كلمة بمعنيين مختلفين، أو استخدم كلمات متجانسة صوتياً فى معان شديدة القرابة. وشرح هذا على سبيل الافتراض هو أن كلمة مفتاحاً ما ظلت تتردد فى الشعور الباطن، وساعدت على تحديد اختيار الكلمات التالية لها. ويوحى الشاهد التحليلي النفسى، وخصوصاً الأمثلة الواردة فى كتاب فرويد المسمى الطب النفسى فى الحياة اليومية (١٩١٤) بأهمية الروابط اللفظية الصرف؛ أى ذلك النوع من الروابط المتمثلة فى التورية والتقلاب والتباديل فى طرائق اللا شعور. ومن ثم يصبح للمرء الحق كل الحق فى أن يتوقع أن تشتمل اللغة الشعرية، التى لا تحكمها

(1) Ibid, p. 18.

أهداف اتصال لها خصوصيتها، والتي تسمح بمجال أوسع لعمليات التداعي، على قدر بعينه من التكرار القائم على التقابل والتباديل، حتى وإن لم يسع الشاعر إلى ذلك قاصداً.

وإذا كانت الحالات المقنعة للتقابل والتباديل تشتمل - كما اعتقد سوسير - على تكرار كلمات قائمة من قبل في النص، فإن في وسع المرء إذن أن يربط بين التقابل والتباديل وغيرها من العمليات الشعرية. وفي عبارة بودوير التي يقول فيها: "Je sentis ma gorge serrée par la main terrible de l'hystérie" خط تحتها، وهي is terri، إنتاج الكلمة الأخيرة على وجه الدقة، أي hystérie. ويمكن أن يقال من باب الافتراض إن الشاعر إنما أراد أن يصنع نسيجاً صوتياً غنياً بالأصدا، فاتفق له أن صنع صورة من صور التقابل والتباديل. ولننظر في هذا المقطع من «السونيت» التي كتبها جيرارد مانلي هوبكنز، حيث يقول:

As kingfishers catch fire, dragonflies draw flame;

As tumbled over rim in roundy wells

Stones ring; like each tucked string tells, each hung bell's

Bow swung finds tongue to fling out broad its name.

فيمكننا أن نجد الأصوات المشكلة لكلمة Christ (في السطر الأول نجد i,r,k وفي السطر الثالث نجد st مرتين)، ولكلمات أخرى كثيرة؛ ولكن هذه التقابل والتباديل المحتملة تبدو أقل في أهميتها من الأصدا المترددة في "King fishers catch fire" وفي "hung.. swung.. tongue" التي توحى بأن المخلوقات والأشياء تخلع أسماءها على ما تصنعه. وكذلك يرتبط التكرار القائم على التقابل والتباديل بالقافية والجناس الاستهلالى (*) والسجع - وهي القوالب التي تشكل المستوى الصوتي من خلال تكرار

(*) حين يرد تكرار الحرف في بداية كلمتين أو أكثر يسمى هذا بالجناس الاستهلالى. (المترجم).

مكونات العلامات لا العلامات ذاتها. وقد كتب سوسير نفسه، الذى تنبه فى عمله إلى التكرار فى أنواعه المختلفة، يقول:

من السهل افتراض أنه إذا بدأ المرء بإحدى صور التقاليب والتباديل فإن تكرار المقاطع الناشء عنها قد ينتج فكرة نظام يتولد من صوتم إلى صوتم؛ أى جناس استهلالى يودى إلى توازن بين الأصوات، بقدر ما هو من السهل افتراض المقابل، بمعنى أن الشعراء يكونون متنبهين ابتداءً إلى توازن الأصوات ثم يجدون ذلك طبيعياً، مع التسليم بأن الأصوات نفسها لا بد من تكرارها لاختيار ما يشير منها فى الوقت نفسه إلى اسم لا بد أن يكون كل إنسان قد تنبه إليه⁽¹⁾.

وفى كلا الحالين ترتبط التقاليب والتباديل بممارسة التكرار، حتى مع أن الصورة الكاملة للتقاليب والتباديل قد لا تكون حاسمة آخر الأمر، وإن كان هذا يضيف على التكرار الدقة والإحكام، ويستعيده بوصفه علامة قابلة للتحديد.

وعلى هذا يمكن أن تكون التقاليب والتباديل حالة خاصة من ظاهرة أعم، قد يتطلب الأمر تقدير أهميتها فيما يتصل بأداء اللغة لوظيفتها. ووفقاً لشرح سوسير للغة بوصفها نظاماً من العلامات، تشتمل أى لغة على علامات هى نتاج التعارض بين عناصر لا تحمل فى ذاتها معنى ولكنها تؤدي وظيفة تخالفية. وهذه العناصر الأساسية – كما رأينا فى الفصل الثانى – تحددها بصورة نهائية قابليتها لتمييز عناصر المستوى الأعلى، أى العلامات. فالصوتم /b/ يمثل تقاطع التعارضات التى تفرق بين bat و pat و cat و fat و gat و hat و rat و sat و tat و vat، أو بين bet و jet و let و met و pet و net و set و dept و vet. وإذا ما بدأ المرء – عند نظره فى نص ما – بالالتفات لا إلى العلامات ولكن إلى طرز أخرى شكلتها مكونات العلامات كالحروف والصوتومات، فعندئذ يتراءى منظور مختلف، يتمثل فى إمكانية قيام عمليات دالة أخرى يكون عملها دون علامات النص الظاهرة أو جنباً لجنب معها.

(1) Ibid, p. 95.

وقد كان سوسير نفسه ميالاً إلى ألا يعد تكرار الحروف مهماً إلا عندما يمكن النظر إليها على أساس أنها انتشار أو اختباء للعلامات المنتظمة المتعلقة بظاهر العبارة في النص. ومن ثم نراه وهو يحدد مستوى آخر وآلية أخرى للدلالة، يؤكد أن طاقاته النصية قد اجتازت العلامات العادية، وذلك حين يدل تكرار التقاليب والتباديل على معنى عن طريق ما يشكله من الأسماء الصحيحة. وفكرة النظر في العناصر التكوينية للعلامات من حيث دورها في التقاليب والتباديل قد مكنت مع ذلك لاحتمالين:

١- العثور على أشكال التقاليب والتباديل وآثار أخرى للعلامات لا تظهر علناً في النص ويمكن أن تحمل رسالة مضادة.

٢- العثور على طرز من التكرار لا يمكن أن تنحل في يسر في العلامات المنتظمة، كما هو الحال في عبارة "Kingfishers catch fire"، أو عبارة "proud as a pea-cock"، أو "I like Ike"، فبمجرد أن يبدأ الإنسان في التفكير في الحروف بوصفها مكونات ممكنة لطرز أخرى، يكون بذلك قد أخذ في تناول اللغة بطريقة جديدة.

ومن هذا المنظور يبدو أن اللغة لم تعد ذلك النظام من العلامات، التي تربط كل علامة منها بين دال ومدلول، بوصفها طرازاً لا نهائياً من الأصداء وصور التكرار، حيث يواجه القراء مشكلة تحديد أى الطرز يتعقبون من بين الطرز الكثيرة المحتملة، وأى منها يجعلون له دلالة (لقد بحث سوسير عن التقاليب والتباديل في الأسماء الصحيحة الوثيقة الصلة بالموضوع، ولكنه ربما بحث - بدلاً من ذلك - عن التقاليب والتباديل التي لا صلة لها به، أو عن طرز حرف اللين أو عناقيد الحرف الساكن). إن العلامات ليست مجرد مادة للإدراك؛ فإدراك الدال آخر الأمر هو أن تنزل بعض الطرز دون غيرها منزلة التعبيرات التي تحمل معنى. ثم إن المعنى - من جهة - يبدو من إنتاج القارئ الذي يتعقب بعض الدلالات دون غيرها؛ ولكن التأثيرات اللغوية على اختلاف أنواعها - من جهة أخرى - يمكن أن تكون من نتاج وسائل يبدو أنها لا تتضمن أعرافاً لغوية على الإطلاق، كما هو الشأن في عملية التشكيل الصوتي لشعارات الإعلان أو للشعر،

التي يمكن أن تؤدي دورها دون قارئ أو مستمع يتحول في وضوح إلى الوعي بها. وفي كلا الحالين يبدو نموذج اللغة بوصفها نظاماً من العلامات عرضة للهجوم. وتبدو فكرة أن الأعراف اللغوية السابقة تمكن المستمعين أو القراء من تحديد الدوال ومعرفة معانيها - تبدو كما لو أن العمليات التي تعرضها التقاليد والتباديل قد قوضتها من جانبيها؛ فهناك عملية تشكيل تؤدي دورها دون أعراف سابقة أو إدراك لها من جانب المستمعين؛ وهناك عملية تشكيل يبدو أن القراء قد أنجزوها بكامل إرادتهم، أولئك الذين يتحتم عليهم أن يحددوا ما يعد دالا.

هذا التصور للغة، الذي يلمحه المرء وهو يجاهد مع سوسير من أجل أن يدرك الأسماء المفاتيح والطرز الأخرى التي يبدو أنها متناثرة في النص بطريقة التقاليد - كان له أهمية خاصة بوصفه نقداً لوجهات النظر الخاصة باللغة، والمتضمنة فيما سمي «مركزية العقل» logocentrism في التراث الغربي. ونحن نرى بصفة عامة أن اللغة نظام وسيط يتم من خلاله التعبير عن الفكر أو تجسيده. وقد يكون الوضع المثالي هو تأمل الفكر مباشرة، دون تدخل من العلامات؛ ولكن يتحتم علينا اللجوء إلى العلامات، التي تقوم فيها الدوال المادية مقام المدلولات الروحية أو تمثلها. فالدوال تجليات خارجية ينبغي أن تكون شفافة قدر المستطاع، وأن تؤدي إلى المفاهيم ذاتها، أو إلى «ما في ذهن» المتكلم، عندما ينطق بتلك العبارة الإنجليزية الكاشفة.

ومن هذا الوصف الذي يظل مختصراً يستطيع المرء أن يستخرج عناصر كثيرة تتعلق بمركزية العقل، أي الإطار المفهومي المألوف للفكر الغربي؛ فالتصورات العادية للغة تستند إلى التعارضات التراتبية (الهيراركية) بين الحقيقة والمظهر؛ بين الجوهر والعرض؛ بين الداخلي والخارج؛ بين المعنى والشكل، حيث تكون للكلمة الأولى منهما الأولوية، وتفهم الثانية بالنسبة إليها، بوصفها فرعية ومتوقفة عليها. ويقف النموذج العام هنا في مقابل الحقيقة الواقعة أو الأساس الذي تقوم عليه المظاهر، والأعراض، والأمور الطارئة، والصور التمثيلية - ذلك الأساس الذي يتمثل في نسق الحقيقة؛ في المنطق؛ في العقل؛

واختصاراً في اللوجوس logos (الكلمة)، (ومن ثم كانت مركزية العقل). وعلى هذا تفهم الدوال على أساس أنها تقوم مقام المفاهيم أو تؤدي إليها؛ تلك المفاهيم التي تستقل مبدئياً عن وسائلها في الإبانة أو التعبير. ومن ثم ينبغى ألا يختلط الفكر مع وسائله في التعبير أو يتأثر بها. والكارثة في الجناس - على سبيل المثال - هي أنه يتناول علاقة يفترض أنها عرضية وطارئة بين الدوال (مثل ما بين history و his story أو بين write و right) كما لو كانت علاقة فكرية. فإذا ما استمرت هذه الصور من الاختلاط فربما شوشت على التعارض التراتبى وهددت الاستقلال الذاتى للمعنى / الحقيقة / الجوهر / الداخلى وأولويتها، بجعلها خاضعة لتأثير الشكل / المظهر / العرض / الخارج.

وقد تمثل جانب من مركزية العقل، يتعلق على نحو خاص باللغة، فى فكرة أن الأصوات تمثل المعانى القائمة فى وعى المتكلم - أى ما فى ذهن المتكلم. ولقد كانت علاقة سوسير بمركزية العقل معقدة، على نحو ما سيبرز فيما بعد فى الفقرة التالية عند مناقشتنا لقراءة جاك ديريدا للدروس، ولكننا نستطيع أن نقول فى هذه المسألة إن مقاومة سوسير لمركزية العقل لم تنشأ عن اهتمامه بالتقابل والتباديل أو لم تتطلب هذا الاهتمام. فالدال ليس تعبيراً عن مفهوم له استقلاله الذاتى أو عن بديهة؛ لأن اللغة - أولاً - ليست سجلاً بالأسماء، ولأن ما يمكن أن يكون له حضور مائل للوعى - ثانياً - هو شبكة من الاختلافات أو الفروق. وإذا كان أكثر خواص كل علامة تحديداً - وفقاً لما كتبه سوسير - هو أن تكون مغايرة للعلامات الأخرى، وإذا كان المدلول يتكون من آثار مما يتعارض معه، فلن يكون فى وسع المرء عندئذ أن يتكلم عن مثول مدلول واحد فى الذهن له استقلاله الذاتى. فعندما أتلفظ بكلمة أخضر، فإن هذا «المفهوم» على نحو ما يتمثل، ربما كان أفضل تعبير عنه هو أنه يجمع بين ما «ليس أزرق»، وما «ليس أحمر»، وما «ليس أصفر» إلخ. - أى حزمة من المنفيات. فكلمة أخضر معناها حيز فى شبكة من الاختلافات المشتركة بين الأشخاص. وإعطاء الكلمة معناها لا يعنى استعادة شيء كان حاضراً عند تلفظى بالكلمة، ولكنه يعنى ملء الحيز بعلامات أخرى، لكى اشخص بعض الخصائص الفارقة التى تحدد معنى الكلمة.

إن إصرار سوسير على القول بالطبيعة التخالفية للعناصر اللغوية موجه ضد مركزية العقل؛ ولكن يبدو أن صورة اللغة التي قدمت بطريقة واعدة عن طريق تعقب التقاليد والتباديل تذهب إلى أبعد من هذا؛ إذ تتشكك في فكرة أن اللغة نظام من العلامات عن طريق الإشارة: (١) إلى أن هناك قوى تعمل تحت مستوى العلامة؛ (٢) أن العلامات لا تقدم بطريقة خارقة للعادة، حتى إن اتخاذ القرار بتناول أشكال بعينها وليس غيرها بوصفها أشكالاً دالة هو فرض للمعنى، وليس تعرفاً للعلامات التي استقرت في العرف. ومفهوم العلامة القائم على أساس التمييز بين الشكل والمعنى، أو المحسوس والمدرك، ينتمى بكل تأكيد إلى مركزية العقل في الفكر الغربي، حتى إن عمل سوسير في مجال التقاليد والتباديل إذا كان يقدم لمحة عابرة إلى القوى التي توقع الفوضى في نظام العلامة، فإنه يحدد ما تعمل مركزية العقل على كبحته أو تنحيته جانباً بوصفه غير مناسب لطبيعة اللغة.

وهناك درسان يمكن استخراجهما من المثل الخاص بالتقاليد والتباديل، ولكنهما درسان يمكن أن يصدرا على نحو أيسر عن نص مثل «رقبة فنجان Finnegan's Wake»، لم يكن بطبيعة الحال في متناول سوسير. وتبدو رقبة فنجان كأنها منسوجة من كلمات تشبه علامات من لغات مختلفة ولكنها لا تتوافق معها في بعض الأحيان^(١):

And stand up tall! Straight. I want to see you looking fine for me. With your brandnew big green belt and all. Blooming in the very lotust and second to nill, Budd! when you're in the buckly shuit Rosensharonals near did for you. Fiftyseven and three, cosh, with the bulge. Proudpurse Alby with his pooraroon Eireen, they'll. Pride, comfytousness, enevy.

(1) James Joyce, *Finnegans Wake* (London: Faber, 1939), p. 629.

وأنا مدين لديريك اتريدج Derek Attridge في مناقشته في مقاله *Unpacking The Portmanteau* (ed): *On Puns* (Oxford: Blackwell, 1988). انظر:

وقف فارعا منتصبا! أود أن أراك جميلاً فى عيني. فى زُنَّارك العريض الأخضر الجديد وفى كل ما سواه. ناضراً ومزهراً فى قلب النيلوفر نفسه، ولا نظير لك. أيها البرعم! عندما كنت فى حلة عيد الميلاد اقترب منك روزنشارونالز. سبعة وخمسون وثلاثة، وقضيب للقمع، مع التواء، وألبى صاحب كيس النقود الفخم، وإيرين المسكينة، وكل شىء. إنها الكبرياء، والدعة، والحسد^(١).

إن معرفة السياق تمدنا بموضوعات مختلفة (على سبيل المثال موضوع الزوجة والام التى تطلب من الزوج أن يستعرض ملابسه الجديدة أو قدرته الجنسية)، ولكن التفسير هو آخر الأمر استكشاف للعلاقات القائمة بين الصيغ التى قدمها النص والعلامات التى تنتمى إلى لغات مختلفة؛ فكلمة shuit توحى بطبيعة الحال بكلمة shit (حقير)، ولكنها ربما كانت أنسب لكلمة shirt (قميص)، أو suit (حُلة)، أو shoes (حذاء) وهذا بسبب كلمة buckle فى كلمة buckly (مرصع)، وإن كانت الصيغة buckly suit توحى «بحُلة عيد الميلاد». أما كلمة Rosensharonals فهى أشبه أن تكون اسماً حقيقياً (الحائِك؟)، ولكنها تستدعى عبارة "Rose of Sharon" (وردة شارون)، التى تتوافق مع bloom (زهرة)، و lotus (اللوتس)، و budd (برعم). وكلمة budd ذاتها تستخدم فى المخاطبة ("Hey, bud")، أو الكلمة الخاصة بعضو التذكير فى اللغة الغالية (وهو ما يتوافق مع "stand up tall" (قف فارعاً)، كما أن قوله "nill, Budd" تشتمل على تقليب لكلمة "Dublin" - أى ينطق هذه الكلمة معكوسة - التى تبرز للعيان فى الرقبة Wake، والتى تم استدعاؤها هنا مع «نارها الأخضر وكل شىء green belt and all، وذلك قبل المشهد السياسى الخاص «بالبى صاحب كيس النقود الفخم» proudpurse Alby (بريطانيا الغادرة؟ Perfidious Albion؟)، مع صاحبتة «العريزة البائسة إيرين pooraroon Eireen (أى «آير البائسة» poor Eire، ولكنها توحى أيضاً «إيلين آرون» Eileen Aroon، التى تعنى «إيلين، عزيزتى»).

هنا، وكما هو الحال فى التقاليب والتباديل، يشعر القراء أنهم - من جهة - مرغمون

على اختيار ما يقتضون أثره، أى ما يتناولونه بوصفه دالاً، وإن كانوا - من جهة أخرى - خاضعين لعملية تكرار، تردد فيها بعض العلامات أصداء علامات أخرى، فى لغات ربما كانوا لا يعرفونها. هكذا يشعر القراء على السواء بأن هناك معنى ملحقاً فى النص (فى علاقات الكلمات بكلمات أخرى)، وأن المرء ينبغى له أن يبدع إنتاج المعنى عن طريق تعقب بعض الصلات، رابطاً بين صيغ فى النص وعلامات بعينها.

إذن فالدرسان هما: أولاً، أن كلمات العمل متجذرة فى كلمات أخرى سابقة، وأنها تحمل آثاراً منها بطرق مختلفة، ربما كانت بطريق التقاليب والتباديل، ولكنها تكون كذلك عن طريق أنواع مختلفة من التردد. ومع أن هذا يتضح عن طريق الكلمات التى تكون كل كلمة منها منحوتة من كلمتين (مثل "Comfytousness" و" Famillionarily")، والتى تحيل فى وضوح إلى غيرها من الكلمات، أو عن طريق متواليات مستغلقة تتطلب تفسيرها بوصفها تحولات لكلمات أخرى (مثل "shuit" و" buckly") مع هذا فإنه يصح فى كل المتواليات اللغوية، التى تتألف من مقاطع أخذت من متواليات أخرى، والتى تشير تلميحاً إلى تلك المتواليات من خلال ما فيها من تشابهات واختلافات. إن اللغة شبكة من الآثار traces ينساب فيها الدوال الواحد فى الآخر. ومن ثم لا يستطيع المرء أن يقرر فى اطمئنان ما هو داخل النص وما هو خارجه - وهو درس قابل للتعميم، يستفاد من حالة التقاليب والتباديل. وينبغى للمرء أن يتابع قوى الجذب التى تربط بين الدوال بأكثر الوسائل قدرة على الإنتاج.

ولكن هذه الأمثلة تُبرز - من جهة ثانية - أن عملية تفسير أى ملامح فى النص على وجه الإطلاق هى استعادة لهذه الملامح بوصفها علامات. وإن إدراك شىء ما على أنه دال، أى جعله يدل على شىء، معناه إنشاء علاقة متبادلة بينه وبين مدلول، وإن كان هذا المدلول خاوياً. وينبغى للحديث السعيد عن لعب الدوال أن يأخذ فى الحسبان حقيقة أنه لا يمكن أن يكون هناك دوال بغير مدلولات. وقد أدرك سوسير متواليات التقاليب والتباديل، وتناولها بوصفها دوال عندما شكلت حروف كلمات كان يعرف

معانيها. ونحن فى محاولتنا قراءة رقبة فنجان نتناول الصيغ على أساس أنها دالة عن طريق الربط بينها وبين علامات معروفة تعيننا على افتراض مدلولات بديلة (بأن نقول إن shuit هى "suit" أو مدلولات مركبة (كأن يقال إن shuit هى "shirt"، و suit و shoes جميعاً)، أو مدلولات مجاوزة للغة (حين تدل shuit على «زيف التفرقات العادية»). ويظل أكثر صور لعب الدال تجذراً فى حاجة إلى افتراض المدلولات والعمل من خلالها.

وقد يبدو حقاً أن ما نواجهه مراراً وتكراراً فى هذه الأمثلة هو ظاهرة التغير فى النظم السيميوطيقية، أى الطريقة التى يمكن بها إنتاج المعانى الجديدة، وتعديل الشفرات أو الأعراف أو توسيع نطاقها. ونحن نواجه من وقت إلى آخر مواقف تكون فيها اللغة أو صورة مشكلة من مادة رمزية أخرى واعدة بالمعنى ولكنها تقاوم. فهى تعد بالمعنى من حيث إننا نرغب فى أن نفردها وضماً دالاً نتيجة لشبهها بدوال مسلم بها، أو نتيجة للشكل الذى يبدو أنها تنتمى إليه؛ ولكنها تقاوم بمعنى أننا لا نملك أن نقرر أى الأعراف له تعلق بها (أى لا نملك أن نقرر أى علامة هى من بين العلامات المختلفة الممكنة)، أو على أى نحو ينبغى لنا أن نعدل من أحد الأعراف حتى يتقارب معها.

وأهم الأشياء السيميوطيقية هى تلك التى نوثق فى إصرار علاقتها بنظم العلامة ولكنها من الصعب تعيين موضع لها، كما أنها تتابى على التفسير السهل. إنها لا تلائم حقاً تصنيفات النظام، بل يبدو أنها تتحاشاها، وأنها تنتهك ما يعتقد المرء أنه القواعد الخاصة بها. ولكن لما كنا محكومين بالالتزام السيميولوجى القائل: حاول أن تجعل للأشياء معنى، فإننا ندخل فى صراع مع الشيء المستعصى أو المراوغ، مرهفين تصوراتنا للمعنى وموسعين لها، أو معدلين من قواعد نظامنا ومستتبطين منها، أو واضعين شفرتين جنباً إلى جنب لإبراز التفاعل التفسيري. ونحن نواجه هنا مسألة أثرت من قبل حول الأدب؛ فلو أن شفرة ما سيميوطيقية ظاهرة الدلالة قدمت تفسيرات للأعمال الأدبية، لكان الأدب ضعيل الأهمية، ولحاول المؤلفون - إذا صح أنهم كتبوا شيئاً على الإطلاق - أن ينتهكوا هذه الشفرة.

إن السيميوطيقا تتناول المعنى بوصفه نتاجاً لنظام من الاعراف . وهذا النموذج يلائم الكثير من شؤون حياتنا، حيث تعنى العلامة الحمراء الثمانية الاضلاع « قفا » ويعنى زى رسمى بعينه الشرطة، وتعنى عبارة Apportez-moi le livre rouge (احضر لى الكتاب الاحمر) . ولكن أكثر المواقف تحريكاً للذهن، التى غالباً ما تكون مخيبة للظن، هى تلك التى نجد فيها عناء الملاءمة بين الشفرات والظواهر، والتى يبدو فيها المعنى بما هو نتاج للاعراف وقد حل محله توتر بين تصورين آخرين للمعنى هما: المعنى بوصفه خاصية فى النصوص أو الأشياء، والمعنى بوصفه المدلول الذى يستطيع أن أعزوه إلى الأشياء . وليس من الممكن الدفاع كثيراً عن أى من هذين المفهومين؛ ولكن الموقف الذى نناضل فيه من أجل أن نستكشف معنى يسكن فى الشيء، ونشعر فيه فى الوقت نفسه أنه ينبغى لنا أن نخترع معنى أو أن ننتجه - هذا الموقف يبدو نموذجياً من منظور السيميوطيقا. إننا ننجذب إلى هذه الحالات أو المواقف، التى يبدو أنها تضعنا على حدود الشفرات والاعراف، حيث تُفحص الشفرات، وربما حوّلت، وحيث يتحتم إنتاج المعنى . ويرجع الاهتمام الذى استثاره عمل سوسير فى مجال التقابل والتبادل فى جزء منه إلى صياغته الدرامية العملية للتوتر بين العثور على معنى وافترضه؛ وهو توتر يقع قبل اعراف النظم السيميوطيقية ووراءها .

قراءة ثانية لسوسير :

يفرق ميشيل فوكو تفرقة مفيدة بين مؤسسى الحقول المعرفية ومن يسميهم مؤسسى الممارسات الخطابية . ذلك بأن مؤسس الممارسة الخطابية - وهى نشاط يجمع بين الخطاب والتعليق - هو شخص مثل ماركس أو فرويد، ينشئ ميدانا من الخطاب تأخذ فيه مراحل التقدم شكل التفسير الجديد للنص الاصلى . فالماركسية تتقدم عن طريق التفسيرات الجديدة لماركس، شأنها شأن التحليل النفسى، الذى تقدم عن طريق إعادة قراءة فرويد . أما مؤسسو الحقول المعرفية فقد تكون لهم أهمية ثورية تاريخية، ولكن مراحل التقدم فى حقولهم المعرفية لا تأخذ شكل التفسيرات الجديدة للنصوص التأسيسية؛ فعلماء

الطبيعة لا يصنعون علم الطبيعة بالكتابة عن نيوتن. ونحن نعد سوسير حتى الآن مؤسس حقل اللسانية الجديد؛ وهو الحقل الذى يتقدم بصفة عامة - فيما يمكن التنبؤ به - بكل ما ارتبط به من مجادلات دون الإشارة إلى سوسير. وقد درسنا سوسير كذلك بوصفه مؤسساً لحقل السيميوطيقا المحتمل. ولكن سوسير قام بالدور الآخر كذلك؛ فكتابه دروس فى علم اللغة العام يمثل نصاً من النصوص الأساسية فى المجال الخطابى اليوم، الذى يعرف بكنيته الا وهى «النظرية» theory، كما ان المناقشات المتعلقة بالدلالة فى الحقول المختلفة قد أخذت شكل المراجعات أو التفسيرات الجديدة لسوسير. وهناك ثلاث مناطق تمت فيها قراءات جديدة مهمة لسوسير هي: الماركسية، والتحليل النفسى، والتفكيكية.

الماركسية:

كان لابد للمحاولات التى بذلت فى النظرية الماركسية لتصحيح مسألة الحتمية الاقتصادية الفجة، التى تحيل النشاط الثقافى إلى بنية عليا فرعية - أن تصل إلى طرق التعامل مع اللغة ومع النشاط الرمزى بعامة. ويمكن فهم هذا العمل على أنه محاولة لتصحيح «الفروض المثالية» فى نظرية العلامة عند سوسير. وقد لاحظ روزالند كاوارد Rosalind Coward وجون إليس John Ellis أن دراسة سوسير للغة بوصفها نظاماً للعلامة، وامتداد هذا المنظور إلى مجال الممارسات الاجتماعية التى فهمت على أنها لغات، يمكن أن يعيننا - إذا ما تمت قراءتهما من زاوية مادية - على التخلص من «موطن الضعف الأساسى فى الفكر والممارسة الماركسيين». «ولأن كل الممارسات التى تشكل المجتمع فى كليته تتحقق فى اللغة، يصبح من الممكن النظر إلى اللغة بوصفها المكان الذى تتشكل فيه بنية أفراد المجتمع»، والقيام «للمرة الأولى بتحليل علمى لمفهوم «الإنسانى» الذى نرى أنه فرض أساسى تفرضه الإيديولوجيا البورجوازية»⁽¹⁾.

وقد فهم كاوارد وإليس الإضافة الكاشفة التى قدمها سوسير على أنها الفصل بين

(1) Language and Materialism (London: Routledge), p.2.

الدال والمدلول من أجل دراسة العلاقات القائمة بين الدوال فى عملية إنتاج المعنى . وما ذهب إليه سوسير من أن المعنى هو نتاج الاختلافات « كان ينطوى على إمكانية أساسية، ما دام من الممكن النظر إلى الدال على أن له وظيفة مؤثرة فى خلق المدلول وتحديده»⁽¹⁾. والنظرة العامة التى ترى أن المعنى، ومعه الملامح الحاسمة للنظام الاجتماعى، أحرى أن تكون ثمرة إنتاج من أن تكون معطاة، وأن هناك عمليات إنتاج تتطلب الدراسة - هذه النظرة كان لها أهميتها لدى عدد من المنظرين الماركسيين الذين يرغبون فى أن يمنحوا حقل السيميوطيقا استقلالاً ذاتياً نسبياً، ذلك الحقل الذى يتم فيه إنتاج الأشياء والإيديولوجيا .

كذلك أعيد تفسير وصف سوسير للعلامة بطريقة أكثر خصوصية فى المناقشات الماركسية للقيمة، لا سيما مناقشات جان بودريار Jean Baudrillard، الذى ماهى - وربما كان متأثراً باستخدام سوسير الخاص للاستعارات الاقتصادية فى الدروس- بين بنية العلامة وبنية السلعة . وكان ماركس قد ميز بين القيمة الاستخدامية Use-value للسلعة (أى فائدها الحقيقية لدى فرد ما) والقيمة الاستبدالية exchange - value لها (أى قيمتها فى نظام التبادل الاقتصادى)، وعد هذه القيمة الأخيرة مظهراً ليست له علاقة منتظمة بالقيمة الاستخدامية للسلعة . وهذه البنية، التى ترتبط بـ «تفديس السلعة» commodity-fetishism، هى بنية العلامة؛ فالقيمة الاستبدالية دال، والقيمة الاستخدامية مدلول . ويذهب بودريار إلى أنه ليست هناك علاقة طبيعية تربط، أو ينبغى أن تربط، بين الاثنين أكثر مما تربط بين الدال والمدلول . وفى موقف مضاد للماركسية، التى ترى أن القيمة الاستخدامية معطاة، وأنها المعنى الحقيقى للسلعة، التى يختلف عنها دالها للأسف فى النظم الرأسمالية - يذهب بودريار إلى أن هذه القيمة الاستخدامية ينبغى أن تفهم بوصفها مدلولاً يبدو أنه لا يكون له وجود منفصل عن داله (أى القيمة الاستبدالية) . وهذا المدلول ينتجه فى الحقيقة النظام الدال لكى يقدم - أى

(1) Ibid., p. 3.

هذا المدلول - أساساً للدال أو دفاعاً عنه، بوصفه - أى هذا المدلول أيضاً - هو القيمة التي يفترض أن الدال يمثلها. وإذ يؤكد بودريار أن السلعة هي العلامة، وأن العلامة هي السلعة، نراه يستخدم النموذج السويسري لكي يفند الشروح الماركسية التي تعزو النشاط السيميوطيقى إلى حقل من حقول البنية العليا (أى الإيديولوجيا) يعكس حقلاً اقتصادياً محدداً تحديداً ضيقاً، ولكي يؤكد أن «الإيديولوجيا هي فى الواقع ذلك الشكل نفسه الذى يقاوم إنتاج العلامات والإنتاج المادى على السواء»⁽¹⁾.

والشئ الذى يبدو فى نظرية سوسير حاسماً بالنسبة إلى الماركسية المعاصرة هو افتراض أن الدوال لا تمثل المدلولات مجرد تمثيل، ولكنها تشكلها، ومن ثم فإنها تنتجها بمعنى ما. وهذا التحريف فى النسق السويسري يجعل من الممكن تصور شرح مادى للعملية الإنتاجية يجمع بين السيميوطيقى والاقتصادى فى إطار مفهومي واحد.

التحليل النفسى :

يقدم جاك لاكان Jacques Lacan، وهو أقوى منظر للتحليل النفسى المعاصر - يقدم عمله بوصفه عودة إلى فرويد فى ضوء سوسير، وإن كان هذا يتضمن كذلك تفسيراً جديداً لسوسير وتعديلاً لآرائه، وذلك لكي تنطبق ملاحظاته عن اللغة على إنتاج الموضوع فى النظام الرمزي. فإذا لم تكن اللغة - كما ذهب إلى ذلك سوسير - مجموعة الفاظ تعبر عن معنى له وجود سابق، بل كانت بنية مركبة من الدوال والمدلولات التخالفية التي يتعارض بعضها مع بعض ويترايط لإنتاج آفاق المعنى، فمن الممكن عندئذ تحديدها (أى اللغة) بنظم العلاقات والأوضاع الرمزية التي تنتج الموضوعات. وقد كتب لاكان يقول: «خلال الكلمة - وهي حضور فى الآن نشأ عن غياب - ... يولد عالم المعنى فى لغة بعينها، ينتهى فيها عالم الأشياء إلى النظام. وخلال ذلك الشئ الذى لا ينتهى إلى التجسيد إلا لكونه أثراً لحالة عدم، والذى لا يمكن بعد ذلك إضعاف دعامته، نجد أن المفهوم ... يولد الشئ... إن عالم الكلمات هو الذى يخلق عالم الأشياء... ومن

(1) Pour une critique de l'économie politique du signe (paris, Gallimard, 1972), p. 173.

ثم يتكلم الإنسان، ولكن ذلك يحدث لأن الرمز قد جعل منه إنساناً^(١).

والامر في اللغة لا يقتصر على أنها تعم النظام الرمزي الذي ينتج عالماً اجتماعياً كما ينتج الأشياء الواقعة فيه، فهناك أيضاً أشهر قول ماثور للاكمان، وهو «أن اللا شعور مشكّل بنيويًا على غرار اللغة». ذلك بأن عمليات التكثيف والإزاحة، التي يراها فرويد مميزة للعمليات اللا شعورية، تتحد مع عمليات الاستبدال والترابط التي هيهاها المحوران الخاصان باللغة (*). وبصفة أعم يذهب للاكمان إلى أنه «إذا كان ما استكشفه فرويد وما يعيد استكشافه، مصحوباً بشعور بالمفاجأة يزداد على الدوام – إذا كان له أى معنى فهو أن إزاحة الدال تحدد الذوات في تصرفاتها؛ في مصيرها؛ في حالات رفضها؛ وفي حالات تهورها؛ في نهايتها وفي قدرها؛ في موهبتها المتأصلة فيها، ومع ذلك في مكتسباتها الاجتماعية، دون النظر إلى الطابع المميز أو الجنس، وأن كل ما قد يعد مادة علم النفس، بقضه وقضيضه، سيقتفى – شاء أو لم يشأ – أثر الدال»^(٢).

والتفرقة التي يقيّمها سوسير – على نحو ما توحى هذه الفقرة – بين الدال والمدلول هي تفرقة حاسمة لدى للاكمان، الذي رأى في نموذج العلامة السوسيري شكلاً لا مندوحة عنه من الحساب الرمزي algorithm: د/د s/s، التي يمكن أن تقرأ على أنها الدال فوق المدلول، حيث تشير كلمة «فوق»، إلى الخط الذي يفصل بين المرحلتين^(٣). والتمييز بين المدلول والدال هو ما جعل من الممكن إنشاء دراسة مدققة للروابط الملائمة للدال، ومدى تأثيرها في أصل المدلول – أى الطريقة التي تشتق بها الدوال معناها من خلال لعب التعارضات والتآلفات. ولكن في الوقت الذي رأى فيه سوسير الدال والمدلول

(1) Ecrits: A Selection (London: Tavistock, 1977), p. 56.

Kaja Silverman, The Subject of Semiotics (New York: انظر : Oxford University press, 1983).

(* المقصود هو المحور الاستبدالي والمحور السياقي (الترجم).

(2) Lacan, "Seminar on the 'purloined Letter'". Yale French Studies 48 (1972), 60.

(3) Ecrits, p. 149.

مترابطين بصورة اعتباطية ولكن على نحو لا فكاك منه، كما هو الشأن فى وجهى الصحيفة من الورق، يرى لاكان أن الخط الأساسى القائم فى الرسم البيانى يشير إلى الفصل الحاسم؛ فلعب الدوال يَعِدُ بالمعنى دون أن يؤديه بالضرورة؛ إذ يحدث هناك ما يسميه لاكان انزلاق المدلول تحت الدال . وكراهيته لأى شىء يمكن أن يقال إنه المعنى الخاص بعلامة ما إنما تبرز على وجه الخصوص فى الفقرات التى يربط فيها - وهو يصف «الفارق الجوهرى بين الدال والمدلول» وشبكته العلاقات اللتين ينظمانيها - بين الدال والنظام اللغوى، وبين المدلول والملفوظات :

إن البنية الأولى، تلك الخاصة بالدال، هى البنية التزامنية لمادة اللغة بقدر ما يفترض كل عنصر فى هذه البنية لنفسه وظيفة محددة تحديداً دقيقاً عن طريق كونه مختلفاً عن غيره من العناصر. وهذا هو مبدأ التوزيع الذى يحكم وحده وظيفة عناصر اللغة فى مستوياتها المختلفة. . والشبكة الثانية، تلك الخاصة بالمدلول، هى جملة الخطابات التاريخية (التعاقبية) المنطوق بها بصورة مادية ملموسة، التى تنعكس تاريخياً على الشبكة الأولى، على نحو ما تتحكم بنية الشبكة الأولى فى مسارات الثانية. والعامل المهيمن هنا هو وحدة الدلالة، التى تدل على أنها لا تنحل مطلقاً إلى مجرد إشارة إلى الحقيقى ولكنها تحيل دائماً إلى دلالة أخرى⁽¹⁾.

وهنا يحيل لاكان المدلول على نحو ملتبس إلى التكشف الوقتى للخطاب، الذى يسميه شبكة المدلول. وربما تأكدت صعوبة تحليل البنية التزامنية للغة بوصفها نظاماً دون الإحالة إلى المدلولات؛ لأن اختلاف المعنى هو الذى يمكن المرء من تحديد الدوال المختلفة. ولكن تفسير لاكان الجديد لسوسير كان أمينا فيما يتصل بالآليات التى يواجهها المرء عند دراسته للتقاليب والتباديل، حيث يواجه المرء دائماً تكراراً لما يعرض على أنه دوال، دون أى تعيين واثق لهوية المدلولات. وتفسير لاكان الجديد لسوسير

(1) Ibid., p. 126.

بوصفه منظرًا للدال يمكن لاكان من الكشف عن أعمق الاستبصارات فى كتابات فرويد، التى تصبح فحوصاً نموذجية وأمثلة للقوى الدالة فى حال عملها فى العقول والنصوص .

التفكيكية:

التفكيكية هى مصطلح ديريدا للنقد الذى يبين كيف أن التعارضات التراتبية (الهيراركية) فى الفكر الغربى قد حلت أو قوضت، أو «تم تفكيكها»، وأنها مطروحة بوصفها تكوينات معنوية أو خدعاً إيديولوجية، وذلك من خلال الكتابات التى تؤكد هذه التعارضات وتستند إليها . وتقوم تحليلات ديريدا بدراسة مركزية العقل فى الفكر الغربى، التى يمكن تشخيصها - على نحو ما رأينا من قبل - بأنها افتراض لنظام للمعنى (الفكر، الحقيقة، العقل، المنطق، الكلمة، اللوجوس) يفهم على أنه الأساس؛ أى أنه سابق على العلامات، وعلى المظاهر الخارجية، إلخ، التى يمكن أن يتجلى فيها، ومستقل عنها . وكانت مركزية الصوت phonocentrism فى نظريات اللغة مثلاً بارزاً لمركزية العقل، وذلك واضح فى معالجة الكتابة بوصفها تمثيلاً لتمثيل، أو بديلاً اصطناعياً من الكلام، ومحاولة لفهم اللغة فى العموم وفقاً لنموذج الكلام . ويذهب ديريدا إلى أن تنحية الكتابة جانباً بوصفها ثانوية وظيفية هى طريقة لإهمال بعض ملامح بعينها فى اللغة، أو جوانب من أدائها الوظيفى . وإذا ما عولجت الكتابة - التى يبدو أنها لا مهرب لها من أن تشتمل على التجرد الموضوعى impersonality، وعلى مسافة بُعد، وعلى الحاجة إلى التفسير، وعلى احتمال سوء الفهم - على أنها مجرد أداة من أدوات التقنية، ثانوية وفرعية، وأنها لا تعلق لها بطبيعة اللغة ذاتها، ففى وسع المرء عندئذ أن يرى جوهر اللغة فى النموذج المثالى المتعلق بالكلام؛ وهو ما يتضح على وجه الخصوص فى تجربة استماع المرء لنفسه وهو يتكلم، حيث يبدو الاستماع والفهم غير قابلين للفصل بينهما، وحيث يبدو الدال والمدلول وقد ارتبطا مباشرة فى علامة، وحيث يبدو التعبير وثيق الصلة بالمعنى الذى قام هو للتعبير عنه .

ويفكك المرء التعارض التراتبى بين الكلام والكتابة عن طريق بيان أن الخصائص

المنسوبة إلى الكتابة، في محاولة الهبوط بقيمتها أو تنحيتها جانباً، تنطبق كذلك على الكلام. وهنا تؤدي قراءة سوسير لدى ديريدا دوراً حاسماً، حين تمدنا بنماذج مؤكدة من الطراز الأول لأوضاع تتصف بمركزية العقل، ولكنها تمنحنا كذلك أمثلة من المبادئ التي تحطمها أو تخربها، عارضة لها على أنها تكوينات معنوية أو خدع (إيديولوجية). ويقوم كتاب ديريدا المسمى عن الكتابة Of Grammatology الذي يعصف بالتمارض التراتبي بين الكلام والكتابة عن طريق التفكير في إمكانية تناول اللغة ضمن حدود علم الكتابة - يقوم بقراءة فقرات في الدروس يتناول فيها سوسير الكتابة بوصفها تشويهاً للكلام. وعلى الرغم من أن سوسير يستبعد على وجه الخصوص الصوت من النظام اللغوي، ويصر على الطابع الشكلي للعناصر اللغوية، فإنه مع ذلك يأخذ بأن «موضوع التحليل اللغوي لا يحدد عن طريق اقتران الكلمة المنطوقة والكلمة المكتوبة؛ فالكلمة المنطوقة وحدها هي التي تشكل الموضوع». (الدروس ٢٣-٢٤؛ دروس ٤٥). وهو يتهم «أخطار» الكتابة، التي «تخفي» اللغة بل «تغتصب» أحياناً دور الكلام. «إن طغيان الكتابة» قوى وماكر، حيث يقود - على سبيل المثال - إلى أخطاء في النطق تعد «مرضية»، هي تخريب وإفساد للصيغ المنطوقة الطبيعية. وعلماء اللغة الذين يعنون بالصيغ الكتابية (التحريرية) «يقعون في المصيدة». والحماسة الأخلاقية التي اتسمت بها مناقشة سوسير تشير إلى أن هناك شيئاً مهماً يتعلق بالأمر عندما تهدد الكتابة - التي يفترض أنها تمثيل للكلام - نقاء النظام الذي تخدمه.

ولكن إذا كانت الكتابة تؤثر على الكلام، فإن العلاقة بينهما إذن أعقد مما تبدو عليه للوهلة الأولى. والمشروع التراتبي، الذي يتناول الكتابة بوصفها عملاً ثانوياً ومعتمداً على غيره، قد لحق به مزيد من التحريف من خلال عودة سوسير إلى مثال الكتابة لكي يشرح العناصر اللغوية؛ إذ كيف يتمكن المرء من تصوير فكرة العنصر التخالفى الصرف؟ «فما دام من الممكن ملاحظة وضع مماثل في الكتابة، التي هي نظام آخر للعلامات، فإننا سنستخدم الكتابة للقيام ببعض المقارنات التي توضح الموضوع برمته». (الدروس ١١٩؛

دروس ١٦٥). وعلى سبيل المثال فإن الحرف t يمكن أن يكتب بطرق مختلفة ما دام يتميز عن الحروف l و f و i و d، إلخ. فليس هناك ملامح أساسية له يلزم المحافظة عليها، إذ إن هويته تعالقية صرف.

ومن هنا فإن الكتابة التي ذهب سوسير إلى أنه لا ينبغي لها أن تكون موضوع البحث اللغوي، تنقلب فتصبح أفضل تصوير لطبيعة العناصر اللغوية. وترتب على هذا أن صار الكلام يفهم على أنه شكل من الكتابة، أو مثال للآلية اللغوية الأساسية التي تتجلى في الكتابة. وهكذا قدم نص سوسير الصورة مقلوبة رأساً على عقب؛ فالتراتبية المعلنة، التي تجعل من الكتابة صورة ثانوية من الكلام، أو طرازاً طفيلياً من التصوير مضافاً إلى الكلام - هذه التراتبية تنقلب فيكون تقديم الكلام وشرحه بوصفه شكلاً من الكتابة. ويتيح لنا هذا مفهوماً جديداً للكتابة، يتمثل في كتابة ذات طبيعة عامة تنشعب إلى فرعين هما الكتابة الصوتية والكتابة الطباعية.

وتأتي إمكانية دراسة الكلام بوصفه حالة خاصة من الكتابة في صورتها العامة نتيجة لكشف سوسير عن الهوية التخالفية للعناصر اللغوية. وكلما أمعن سوسير في تدقيق بحثه، زاد ميله إلى تأكيد الطبيعة التعالقية الصرف للنظام اللغوي؛ « فالنظام اللغوي لا يقوم إلا على الاختلافات، دون أن تكون هناك كلمات ثابتة الدلالة » (الدروس ١٢٠؛ دروس ١٦٦). ومن هنا فإن الصوت في ذاته لا يمكن أن ينتمي إلى النظام؛ إنه وسيط تتجلى خلاله العناصر، شأنه شأن الحبر الأسود، أو اللوحة الرخامية على النصب التذكاري. والمبدأ القائل إن اللغة نظام من الاختلافات - على نحو ما يشرحه ديريدا - من شأنه أن ينتج نقداً شديداً لمركزية العقل، يقوض محاولة تأسيس نظرية في اللغة على كينونات ثابتة ربما فهمت على أساس أنها محددة بطبيعتها، فإذا لم يكن في النظام اللغوي سوى اختلافات،

فإن لعب الاختلافات يتضمن تكوينات مركبة وإحالات تحول عندئذ دون أن يكون هناك في أية لحظة أو بأية طريقة عنصر بسيط قائم في ذاته ولذاته، وأن تكون إحالته إلى نفسه فحسب. وسواء تعلق الأمر بالخطاب المكتوب

أو الملفوظ فلا يمكن لأى عنصر أن يؤدي وظيفته بوصفه علامة دون أن تكون هناك علاقة تربط بينه وبين عنصر آخر ليس له حضور في الواقع. وهذه الرابطة تعنى أن كل «عنصر» - صوتى أو كتابى - يتشكل بالرجوع إلى الأثر المائل فيه من عناصر النسق أو النظام الأخرى. هذه الرابطة أو هذا النسيج هو النص، الذى لا يتم إنتاجه إلا من خلال تحول نص آخر. وليس هناك شىء، سواء فى العناصر أو النظام، هو حيثما كان مجرد حاضر أو غائب؛ فليس هناك فى كل مكان سوى اختلافات وآثار من الآثار^(١).

ويؤدى هذا الاتجاه فى المناقشة، وسط أشياء أخرى، إلى نقد لنظرية سوسير فى العلامة، مع ما يتصل بها من تمييز صارم بين الدال والمدلول. فما دام الدال ليس فى ذاته عنصراً مادياً ولكنه كينونة تخالفية أو تعالقية صرف، عندئذ لا يكون الاختلاف بين الدال والمدلول اختلافاً فى الجوهر - كان يكون أحدهما مادياً والآخر روحياً، أو يكون أحدهما حسياً والآخر معنوياً. وإنما الخلاف بينهما وظيفى صرف؛ فالدال هو كل ما يعد بالمعنى، ولكن المدلول قد يؤدي دور الدال كذلك، على نحو ما يتكشف لنا عندما نراجع كلمة فى أحد المعاجم لنستخرج معناها فنجد بطبيعة الحال كلمة أخرى يمكننا كذلك مراجعتها (*). وهكذا فإن مفهوم سوسير للعلامة، الذى تم تقديمه بوصفه قائماً على أساس التمييز بين الحسى والمعنوى - هذا المفهوم ينتمى إلى مركزية العقل، ولكن سوسير يمدنا كذلك بالآلات اللازمة لتفكيكه. ويشرح ديوريدا هذا على النحو الآتى:

إن الدفاع عن التمييز الصارم - وهو تمييز جوهرى وشرعى - بين الدال

(1) Positions (Chicago: University of Chicago Press, 1981), p. 26.

وللوقوف على مناقشة للتفكيكية، انظر كتابى:

On Deconstruction (Ithaca: Cornell University press, 1982).

(*) ربما كان المثل الأدل فى هذا السياق هو الصيغة التى اهتمت إليها البلاغى العربى القديم عبد القاهر الجرجانى وشرحها، والتى تتعلق بنظرية المعنى عنده، والتى بمقتضاها يتحول المعنى - بوصفه مدلولاً - ليصبح «دالاً» على معنى آخر، هو ما سماه «معنى المعنى». (الترجم).

signans والمدلول signatum، والمعادلة بين المدلول والمفهوم (المعنى)،
 يترك المجال مفتوحاً بصفة مبدئية لإمكانية تصور مفهوم للمدلول في ذاته؛
 وهو مفهوم مائل للفكر، ومستقل عن النظام اللغوي، بمعنى أنه مستقل عن
 نظام الدوال. وإذ يترك سوسير هذه الإمكانية مفتوحة - وقد تركت
 مفتوحة وفقاً للمبدأ نفسه، الخاص بالتعارض بين الدال والمدلول ومن ثم
 بالعلامة - فإنه ينقض المكتسب الحاسم الذي سبق أن تحدثنا عنه. فهو يقر
 المطلب التقليدي المتمثل فيما اقترحت أن يسمى (المدلول المتعالى)،
 Transcendental signified، الذى قد لا يشير فى ذاته أو فى جوهره إلى
 أى دال قد يجاوز سلسلة العلامات، ويكف فى لحظة بعينها عن أن يؤدي
 وظيفته بوصفه دالاً. والأمر - مع ذلك - على النقيض؛ فمنذ اللحظة التى
 يضع فيها المرء إمكانية هذا المدلول المتعالى موضع التساؤل، ويدرك أن كل
 مدلول هو كذلك فى وضع الدال - منذئذ يصبح التمييز بين الدال والمدلول
 إشكالياً فى أساسه، ومن ثم تصبح العلامة كذلك^(١).

وهذا لا يعنى - بطبيعة الحال - أن نظرية العلامة يمكن - أو ينبغى - التخلص منها،
 ولكن على النقيض، يبدو التمييز بين ما يدل وما هو مدلول عليه - يبدو جوهرياً فى أى
 فكر كائناً ما كان، وفى مشروع سوسير اللغوى على وجه التأكيد. والشئ الذى يطرحه
 هذا النزاع هو قبل كل شئ ضرورة النظر إلى التمييز بين الدال والمدلول على أنه وظيفى
 ومؤقت أكثر منه تمييزاً حقيقياً، حتى إن أى مدلول يمكن أن ينظر إليه على أنه دال هو
 كذلك. وعن طريق بيان ديريدا حقيقة أن نص سوسير الخاص بمدنا بنقد لمفهوم العلامة
 الذى يستخدمه سوسير نفسه، راح ديريدا يستخدم هذا المفهوم لإضاءة أعوص
 المشكلات الخاصة بالمعنى. إن قوة نص مثل نص سوسير ووثاقته صلته بالموضوع، قد
 تعتمدان على البراعة التى يضع هذا النص بها التعارضات التراتبية التى يعتمد عليها
 بالضرورة فى موضع تساؤل.

(1) Positions, pp. 19-20.

وهناك مسألة أخرى مهمة في قراءة ديريدا لسومير – وهي حالة أخرى تعتمد فيها حجة سومير الصريحة على التعارضات التراتبية، التي تدعو بعض مبادئه المرء إلى وضعها في موضع تساؤل – هي مسألة الإجراء الذي اتخذه سومير لتأسيس نظريته عن الطبيعة الاعتبائية للعلامة. وقد كتب سومير يقول: «إن الكلمات التي يوحى صوتها بمعناها».

ربما أمكن الاعتماد عليها لبيان أن اختيار الدال ليس اعتباطياً على الدوام. ولكن هذه الكلمات ليست على الإطلاق عناصر أساسية في نظام لغوى. أضف إلى هذا أنها أقل كثيراً مما هو معتقد على العموم. فكلمة مثل fouet (يلهب (بالسوط))، whip) أو كلمة – مثل glas (يقرع الناقوس، knell) قد تصدم بعض الآذان بما لها من وقع صوتي بعينه له إبحاؤه. ولكن لكى ندرك أن هذا ليس بحال من الأحوال خاصة ذاتية في الكلمات نفسها، يكفي النظر في أصولها اللاتينية. فكلمة fouet تأتي من الكلمة اللاتينية fogus (شجرة البلوط، beech tree)؛ وكلمة glas تأتي من الكلمة اللاتينية classicum (نداء آلة البوق الموسيقية، trumpet). والخاصة الإيحائية في النطق الحديث لهذه الكلمات هي نتيجة عرضية لتطور الصوتي. (الدروس ٦٩؛ دروس ١٠١-٢).

وكما لاحظ ديريدا في كتابه المسمى Glas، وهو كتاب خطير، أخذ عنوانه جزئياً من هذه الفقرة، تبدو العودة إلى البحث في أصول الكلمات عند مناقشة الطابع «الذاتي» لعلامة بعينها – تبدو غريبة من قبل منظر يفرق في إلحاح بين الحقائق التزامنية والحقائق التاريخية؛ ومع ذلك فالأغرب من هذا استبعاد «العرضي» من جانب رجل يقول لنا إن اللغة عرضية أساساً؛ فلكى يحدد سومير العلامة اللغوية بوصفها عرضية أساساً – أى اعتباطية – فإنه يستبعد المبرر العرضي.

هذه النقولات المتناقضة، شأن استبعاد الكتابة، تنبهنا إلى إمكانية أن يكون ما قد طرح جانباً من أجل استبقاء العلامة اللغوية الصافية أو النظام اللغوى الصرف – أن

يكون في الواقع جانباً مهماً من اللغة؛ فالمبرر العرضي قد يكون آلية عامة من آليات اللغة. حتى لو أن المرء سلم بما ذهب إليه سوسير من أن الالفاظ الموحية من خلال صوتها بالمعنى لا تكون قط صافية، ولا تعتمد قط اعتماداً قوياً على التشابه، فمع ذلك ربما اهتم المرء بإفساد فكرة الاعتباطية عن طريق اللجوء إلى التبرير، سواء كان هذا التبرير قد طرحته حذافة الشاعر، أو الآثار العرضية للتطور اللغوي، أو عيون القراء الفاحصة، الباحثة عن التقاليد والتباديل، أو أخطاء المتكلمين، أو آليات اللا شعور. وربما حدثت الرغبة بالمرء إلى أن يؤكد مع سوسير أن بنية اللغة الفرنسية أو اللغة الإنجليزية لم تتأثر بمعنى ما بالإيحائية المحتملة لكثير من الدوال، ولكن المرء ربما تساءل كذلك مع ديريدا عما إذا لم تكن اللغة التي يتكلمها المرء أو يكتبها هي على الدوام عرضة لإفساد العلامات الاعتباطية عن طريق التقدم باقتراحات خاصة بالتبرير القائم على أساس فكرة المحاكاة، وعما إذا لم تكن التأثيرات الناشئة عن التبرير غير قابلة للانفصال عن طرائق اللغة. «ماذا إذن لو كانت هذه المحاكاة تعنى أن النظام الداخلي للغة لا وجود له، أو أن المرء لا يستخدمه قط، أو أنه - على الأقل - لا يستخدمه إلا عن طريق إفساده، وأن هذا الإفساد لا يمكن تحاشيه، وأنه - من ثم - مطرد، وعادي»، وأنه ينتمي إلى النظام وأدائه الوظيفي جزئياً *en faase partie*، بمعنى أنه يعد - على السواء - جزءاً من النظام، كما يجعل من ذلك النظام، الذي هو الكل، جزءاً من كل أكبر من ذاته؟⁽¹⁾.

والجملة ذاتها، التي ينحى فيها سوسير التبرير جانباً، تبرز مظهراً للتبرير على نحو يوحى بأن الخطاب ربما دفع به ذلك النوع من الظواهر على وجه التحديد، التي يرغب في استبعادها من نطاق اللغة. وقد كتب يقول «إن كلمة *fouet* وكلمة *glas* (قد تفرعان) *peuvent frapper* بعض الاسماع بما لهما من رنين موح بعينه. وربما كانت كلتا الكلمتين *glas* و *fouet* تفرع الأذن لأن السياط والأجراس تفرعها. والكلمة الملائمة لما تصنعه الالفاظ عندما تحدث ضجيجاً، تبدو متولدة عن الامثلة، أو أن اختيار الامثلة

(1) Derrida, Glas (Paris: Galilee, 1974), p. 109.

يولده ما يظن أن الكلمات تحدثه فى الأذن . وهذه الجملة التى تعمل على إعادة تبرير العلامات التى يفترض أنها اعتباطية، ومن ثم تربط بين بعضها وبعض، تبرز مبدأ كثيراً ما يعمل الخطاب بمقتضاه، وتوحى بأن العلامات الاعتباطية فى النظام اللغوى قد تكون جزءاً من نظام خطابى أوسع نطاقاً، تتحقق فيه على الدوام مظاهر للتبرير، والعدول عن التبرير، وإعادة التبرير . والعلاقات بين الدوال، أو بين الدوال والمدلولات، يمكن دائماً أن تحدث آثاراً، سواء تحققت فى الوعى أو فى اللا وعى . ولا يمكن تنحية هذا التوجه على أساس أنه غير متعلق باللغة، كما أن قراءة سوسير فى إمعان يمكن أن تضعنا على الجادة الصحيحة لهذا التوجه .

إن قراءة سوسير مرة أخرى فى إطار العمل التحليلى للتفكيكية، كما هو الشأن فى الماركسية وفى التحليل النفسى، تشد انتباهنا إلى مشكلات الخطاب وتعقيدات المعنى التى تشيع فى الممارسات الثقافية وتتطلب التحليل السيميوطيقى . وتبدو هذه المشاريع التحليلية الثلاثة جميعاً مهتمة على نحو خاص باستغلال دعوى أن المعنى منتج وليس معطى، وأن اللعب الذى تقوم به اختلافات الدال يشكل المدلولات . والمحاولة التى تظهر فى كل هذه المجالات أن المعانى أو الحقائق التى ربما ملنا إلى فهمها على أنها معطى هى نتاج النظم السيميوطيقية - هذه المحاولة كانت وسيلة فعالة لإزالة الالتباس وللتحليل .

النتائج :

كتب الفيلسوف إرنست كاسيرر يقول : « فى تاريخ العلم أجمع ربما لم يكن هناك فعل أكثر إثارة من ذلك المتمثل فى قيام « العلم الجديد » الخاص باللسانيات . ويمكن مقارنته حقاً من حيث أهميته بالعلم الجديد الذى ينسب إلى جاليليو، الذى غير فى القرن السابع عشر تصورنا الكامل للعالم الطبيعى»⁽¹⁾ . وقد حاولت أن أجمل دور فرديناند دى سوسير فى نشأة علم اللغة الحديث، وأن أشير إلى السبب فى أن ذلك الفعل كان مثيراً فى التاريخ الفكرى الحديث . ولكن المقارنة الجريئة التى أجراها كاسيرر

(1) Stucturalism in Modern Linguistics," Word I (1945), 99.

بين علم اللغة الحديث والعلم الجديد المنسوب إلى جاليليو أصعب من أن تقوم. فماذا
يعنى هذا، وكيف يمكن إثبات صحته؟

بالنسبة إلى كاسيرر كان الجانب الحاسم والثورى فى علم اللغة الحديث هو إصرار
سوسير على أولية العلاقات ونظم العلاقات. وهنا تبدو نظرية سوسير فى اللغة فى
تصوراتها الأساسية وفروضها المنهجية، تعبيراً بالغ الوضوح عن الاستراتيجيات الشكلية
التي عن طريقها عدلت سلسلة كاملة من الحقول المعرفية من نفسها، بدءاً من علم
الطبيعة وانتهاءً بفن التصوير، وصارت حديثة، وذلك فى أواخر القرن التاسع عشر
وبدايات القرن العشرين.

وفى غاية من البساطة يمكن تعيين هذه الاستراتيجية بوصفها نقلاً لمركز الاهتمام من
الاشياء إلى العلاقات؛ فالعلاقات هى التي توجد الاشياء وتحددها، وليس العكس. وقد
أدلى فيلسوف العلوم ألفرد نورث هوايتهد بتصريح عام يتعلق بالمشكلة، يقول فيه: «إن
سوء الفهم الذى لازم أدبيات الفلسفة عبر القرون يتمثل فى فكرة «الوجود المستقل»؛
فليس هناك طراز من الوجود على هذا النحو؛ وكل كينونة يتعين أن تفهم على أساس
الطريقة التي تدخل بها فى نسيج بقية الكون». وقد بين فى كتابه المسمى العلم والعالم
الحديث Science and the Modern World (١٩٢٥) أن الكشوف الجديدة فى العلم
قد جلبت كثيراً من التعقيدات، حتى إن النقلة الأساسية فى المنظور صارت ضرورية إذا
ما كان يتعين على الحقول المعرفية المختلفة أن تتوافق مع نفسها ومع الاشياء. وقد
اكتشف علم الطبيعة أنه كان من الصعوبة بمكان شرح الكهرباء والظواهر الكهربائية
المغناطيسية على أساس من عناصر المادة المنفصل بعضها عن بعض وعن حركتها. وقد
بدا أن الحل يكمن فى نقض المشكلة؛ فبدلاً من أن تكون للمادة الأهمية الأولى، ومن
محاولة تحديد القوانين التي تحكم سلوكها، ما الذى يمنع من النظر إلى الطاقة ذاتها، أى
الطاقة الكهربائية، على أساس أن لها الأهمية الأولى، وتحديد المادة على أساس من القوى
الكهربية المغناطيسية؟ وقد أفضى هذا التغيير فى المنظور إلى اكتشاف أمور علمية
جديدة؛ فالإلكترون ليس كينونة موجبة بالمعنى القديم، ولكنه نتاج حقل من القوة، أو

مفصل في نظام من العلاقات، كما أنه لا يوجد - شأنه شأن الصوتم (الفونيم) - مستقلاً عن هذه العلاقات.

إن ما يسميه هويتهد «مادية» القرن التاسع عشر، أو الاتجاه التجريبي الذي أضفى على الأشياء أولوية وجودية (أنطولوجية)، يتراجع - كما يقول - ليفسح المجال لنظرية في النسبية، بأوسع معانى الكلمة؛ وهي نظرية تقوم على أساس أولوية العلاقات. وقد كتب هويتهد يقول: «بناء على النظرية المادية هنالك المادة التي يكتب لها البقاء؛ وبناء على النظرية العضوية تتمثل حالات البقاء الوحيدة في بنيات القوة الحركية». وهنا يكون الاهتمام بالبنيات؛ فالواقعة تكون على ما هي عليه نتيجة لاتحاد عدد كبير من العلاقات من خلالها؛ أما خارج نظم العلاقات هذه فهي لا شيء.

ويذكر سويسر بطبيعة الحال هذه الموضوعات في وضوح، لا بوصفها جوانب من رؤية للعالم واسعة النطاق، ولكن بوصفها فروضاً منهجية تكون لازمة إذا ما تعين تحليل اللغة تحليلاً سليماً. وبإزاء الأمور المؤكدة عند سويسر يمكن وضع التصريح الواضح للمصور جورج براك Georges Braque، الذي يقول فيه: «إننى لا أومن بالأشياء؛ إننى أومن بالعلاقات». وربما كان هذا هو العقيدة الحدائية الحقيقية؛ فماذا تكون التكعيبية إذا لم تكن تأكيداً لأولوية العلاقات؟ ففي التصاوير التكعيبية تفقد الأشياء أوليتها التي لم تكن حتى هذه اللحظة موضع تساؤل؛ فهذه الأشياء تبرز للعيان في صعوبة خلال التفاعل بين الخطوط والمستطحات؛ إذ إن الفراغ ذا الأبعاد الثلاثة، الذي يدعم الأشياء العادية، يتهاوى في محاولة لتمثيل جملة متنوعة من المنظورات والعلاقات في وقت واحد. ومن جهة أخرى يستطيع المرء أن يلاحظ في الأدب الحديث النقلة التي عن طريقها أصبح الشعر وأصبحت الرواية كلاهما أقل احتفالاً بالمحاكاة المباشرة للأشياء، وأقل عناية بتمثيل الأشياء والمشاهد التي يمكن تمييزها، وأكثر اهتماماً بالآثار الناشئة عن تجاوز الأشياء، حيث تصبح القيم الناشئة عن العلاقات - وهي العلاقات القائمة بين الكلمات أو بين أنماط مختلفة من الخطاب - تصبح المكونات الأولية للعمل الفني.

وقد أدت التغيرات في مجال التقنية، التي وقعت في حقول أو نظم معرفية مختلفة،

إلى التركيز على نظم العلاقة. وهذا هو أساس دعوى كاسيرر المعلنة؛ فحوها أن العالم كما يتمثله الفكر فى قرننا الحالى لم يعد أساساً مجموعة من الكينونات المستقلة، أى الأشياء ذات الاستقلال الذاتى، ولكنه جملة من النظم القائمة على العلاقات.

وهذه النقلة من الشىء إلى البنية هى بحق نقلة فى تصورنا للعالم، ولكن ليس من الواضح إلى أى مدى ينبغى لدور جاليليو أن ينتهى إلى سوسير وإلى علم اللغة السوسيرى. ومن وجهة النظر التاريخية تبدو نظرية سوسير فى اللغة تعبيراً واضحاً كل الموضوع عن نقلة حدثت متزامنة فى جملة متنوعة من الحقول، وإن كان ذلك على نحو أقل صراحة؛ فهى تعبير أو مثل أكثر منها سبباً أولياً. والواقع أنه يبدو من المحتمل أنه إذا كان يتعين فى أى وقت أن يأخذ سوسير دور جاليليو القرن العشرين، فسوف يعتمد حقه فى هذا الموقع على الحقل المعرفى وطرز الفكر الذى كان هو نفسه أداة فاعلة حقاً فى تأسيسه، أى السيميوطيقا. ذلك بأن تهيهتنا لأن نرى فى الحياة الاجتماعية وفى الثقافة بعامه جملة من نظم العلامة التى يسعفنا النموذج اللغوى فى تحليلها، تعد إضافة يمكن أن تجعله آخر الأمر شبيهاً بجاليليو.

ولكن الأوان لم يؤن بطبيعة الحال للحكم على أهمية سوسير فى التاريخ الفكرى لقرننا الحالى، لأن العمل فى حقل السيميوطيقا لم يبدأ إلا منذ عهد قريب، وما زال من غير الواضح حتى الآن ما إذا كانت السيميوطيقا ستصبح حقاً حركة مهيمنة فى زماننا. فإذا صار لها حقاً وجود أساسى، أى صارت حقلاً معرفياً مركزياً، فسوف يرجع هذا إلى جهود كثير من الناس إلى جوار سوسير؛ ولكن بصره بسيميولوجيا تشمل علم اللغة، فى الوقت الذى تتخذ فيه علم اللغة نفسه نموذجاً لها، قد أفضى بآخرين إلى صياغة المنظور السيميوطيقى صياغة عينية؛ فنحن نعيش وسط العلامات، ولابد لنا من أن نحاول لا أن ندرك معناها فحسب، بل أن نفهم كذلك على وجه الخصوص الاعراف التى تحدد معناها. وسوسير هو الذى يساند الدعوى التى قد يعتنقها اليوم كثير من الناس، القائلة إن دراسة البشر هى أساساً دراسة للنظم المختلفة التى بمقتضاها تنظم ثقافتنا العالم وتمنحه المعنى، وتنتج الموضوعات الإنسانية.

ثبت المصطلحات

agglutination	الإلصاق
algorithm	الحساب الرمزي
alliteration	الجناس الاستهلاكي
anagrams	التقايب والتباديل
analogy	القياس
anomalous	الشاذ
anthropology	علم الإنسان
arbitrary	اعتباطي
archaic	مهجور
archaisms	الاستعمالات المهجورة
associative relations	العلاقات الترابطية
atemporal	بمعزل عن الزمان
binary oppositions	تعارضات ثنائية
code	شفرة
collective norm	معياري جمعي
communicative context	سياق تواصلية
competence	الكفاءة

condensation	التكثيف
construct	بنية تصويرية
continuum	كيان متصل ومستمر
deconstruction	التفكيك
diacritical	تمييزي
diachronic	تاريخي (تعاقيبي)
differential	تخالفى
displacement	الإزاحة
ecological	بيئى
entity	كينونة
etymology	علم أصول الكلمات
exchange-value	القيمة الاستبدالية
form	صيغة - شكل
glossematics	المنهج الشرحى
hierarchial	تراتبى
historicity	التاريخانية
hypogram	توزيع الحروف
icon	صورة
identity	هوية - تماثل - حقيقة

indice	مؤشر
institution	مؤسسة
intuition	حدس
langue	اللسان
linguistics	العلوم اللسانية (علم اللغة)
logocentrism	مركزية العقل
metalinguistic	مجاوز للغة
modernist	حدائي
modernity	الحداثة
morphological	صرفي
motivation	تبرير
nasal sonans	الأصوات الأنفية
natural selection	الانتخاب الطبيعي
neologisms	الاستخدامات المحدثه
nomenclature	سجل
onomtopoeia	المحاكاة الصوتية
panchronic	تاريخي عام
paradigmatic relations	العلاقات التبادلية
parole	الكلام

pattern	قالب – طراز
performance	الأداء
phonetics	علم الأصوات اللغوية
phonocentrism	مركزية الصوت
phonology	علم الصوت
problematic	إشكالي
relational	تعالقي
repression	الكبت
schema	مخطط
semanlysis	تحليل الدلالات الإشارية والرمزية
semiotics	علم العلامات
sign	العلامة
signans (signifier)	الدال
signatum (signified)	المدلول
signification	الدلالة – المعنى
sign-systems	نظم العلامة
sonant coefficient	المعامل الصوتي
speech act	الفعل الكلامي
substance	المادة

superstructuralism	البنوية الفوقية
synchronic	وصفي - تزامني
syntactic rules	القواعد النحوية
syntagmatic	سياقي
syntagmatic relations	العلاقات السياقية
syntax	التركيب النحوي
teleology	الغائية
traces	آثار
transsubjective	مجاوز للذات
transcendental signified	المدلول المتعالى
unconscious	اللاشعور
unit	وحدة - عنصر
use-value	القيمة الاستخدامية
utterances	الملفوظات
vocal mechanisms	آليات صوتية
vowel	حرف اللين